الدكتور

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ في جامعة الأزهر الشريف
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة
(سابقا)





أسرار البلاغة القرآنية
في سورة تبت يدا أبي لهب
الدكتور
محمود توفيق محمد سعد
الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٠٠٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٠٧٩٥
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-462-0

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأى المؤلف وهو المسئول عنها وحده



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سعد ، محمود توفيق محمد .
أسرار البلاغة القرآنية في سورة تبت يدا أبي لهب/ محمود توفيق محمد سعد . - ط١ . - القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٧م
١٥٦ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٢٥ ٤٦٢ ٠

١ - القرآن ، بلاغة
٢ - القرآن - سور وآيات

أ- العنوان

ديوي ٢٢٥



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربّ العالمينَ الرّحمنِ الرّحيم مالِك يَوم الدينِ : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً . يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الحمدُ لله حمدًا كثِيرًا طيّبًا مُباركًا فِيه كما يُحبُّ ربّنا ويرضَى فِي كلّ لَمحةٍ ونفسٍ عدد خلِقِه ورِضاء نفسِه وزِنة عرشِه ومَداد كلماتِه كلمّا ذكره الذاكِرونَ وغفلَ عن ذكره الغافلون ، ملْءَ السَّمواتِ وملْءَ الأرضِ وملْءَ ما بيْنهما حمدًا يوافِي نِعمَهُ ويُكافِئ مزيدَهُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِآلائِهِ ونعمائه ، المَحمودِ علَى مَنَحِهِ ومَنعِهِ ، المَحمودِ علَى بَسطِه وقَبضِه ، المحمودِ على جميعِ أمرِه ، الْمَعْبُودِ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ وجميع كونِه .

الحمدُ للهِ أَفْضَلَ الْحَمْدِ وَأَعْلاهُ وأشرفَه وأَسناه ، وَغَايَةَ الْحَمْدِ وَمُنْتَهَاهُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الوافِرةِ الْمُتَرَادِفَةِ على مدَى الإيام ، الْمُتَوَاتِرَةِ علَى جميعِ الأنامِ ، التي يعجزُ العالمون عن إحصائها فكيفَ بشكرها .؟! ، هُو المتفضِّلُ علَى جَمِيعِ خلقِه ، ما خلقَهَم إلا لِيعبُدُوه ، فيُجري عَلَيْهم مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سِمِعَتْ ، ولا خطر على قلب أحدٍ مِنهُم ، تفضلاً منه ورحمة ، لا بسبب من عبادتهم له ، سُبْحانَه وتعالَى جدُّهُ يأمرُنا بما هُو

خيرٌ لنا ، وينهانا عمَّا هُو يَضُرّنا في مسيرنا في دُنيانا ويَضرّنا فِي مَصِيرنا فِي أُخرانا ، فإنا عَبيدُه وهُو ربُّنا المتفضّل عَلينا . لَه الحَمْـدُ حتّـى يَرضَـى ، ولـه الحَمدُ كلُّ الحمدِ إذا ما رَضِيَ بنا عبيدًا وأعاننا فكنَّا له عابدين ، ورضيَ عنَّـا فقَبِلَنا وأقبلَ علينا إقبالَ الحبيب عَلَى حَبِيبه .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٣)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٲلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٲلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٲلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآٮِٕفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٲٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآٮِٕفَةٌۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴾ (الصف:٩-١٤)

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آل مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آل إِبْراهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آل مُحَمَّـدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ أجمعين وَذُرِّيَّتِـهِ ، كَمَـا صَـلَّيْتَ عَلَـى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْـرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللهمّ صَلّ وسَلم وبارِك على عبدِك ونبيّك ورسُولِك سيّدنا مُحمّـدٍ وعلـى آلِه وصَحبه وأزواجِه وذريتِـه وورثَتِـه مـن أهـلِ العلـم وأُمّتِـه أجمعـين عـددَ خلقِك ورضاء نفسِك وزِنةَ عرشِك وَمدَاد كلماتِك صلاة تـنيرُ بهـا قلوبنـا في مَسِيرنا وتُنيرُ بِها قبورَنا في مَصيرنا ، وتُصَحِّحُ بها نيّتنا وتُطَهِّرُ بها نفوسَنا مِن كلِّ ما لا يُرضِيك ، ومِن كلّ ما يَشغلُنا عَن القِيامِ بِحقّك عَليْنا ، صَلاةً تَضبطُ يا مَولانا بِسببها كلّ حركتِنا ظاهرةَ وباطنـة ضـبطًا يُرضـيك عنّـا ، فتقبلنـا ، وتُقبِلُ عليْنا بِرضوانك وإحسانك الذي لا يتناهى إقبالَ الحبيبِ على حبيبِه .

إلهنا وإلهَ كلِّ شيْءٍ أنت ربّ العالمين وأنا عبدُك وابن عبـدِك وابـن أمتـكَ ناصِيتِي بيدك ، ماضٍ فيّ حكمُك ، عدلٌ فيّ قضَاؤك ، وأنا بفضلك وتوفيقك وحـولِك وقوتك علًى عهـدِك ووعـدِك ما استطعتُ ، أعـوذُ بك مِن شـرِّ ما صَنعتُ ، وأبوءُ بذنبي ، فاغفرْ لِي ، فإنّه لا يَغفرُ الذُّنوبَ إلاّ أنتَ .

وارفعْ بالقُرآن العظيمِ ذِكري بيْن عبادِك الصّالحين فِـي الـدّنيا والآخـرةِ ، واستُرنِي وأهلَ بيتي وذريّتي وكلَّ من رأت عينِي من عِبادك المسـلمين سَترًا لا يَنكشِـفُ لأحـدٍ أبـدًا في الـدّنيا والآخـرةِ ، وهَـبْ لِـي حُكْمـاً وَأَلْحِقْنِـي بِالصَّالِحِينَ ، واجعل كلمتي نورًا تهدي به من تحـب إلى مـا تُحـب ، وسـيفًا يجتزّ رقاب من تسخط من أحفاد أبي لهب .

وَاجْعَـل لـي لِسَـانَ صِـدْقٍ فِـي الآخِـرِينَ وَاجْعَلْنِـي ووالـديّ وأهـل بـيتي وأشياخِي وأصحابِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ الفردوسِ العظيم مع سيد المرسلين والعَالَمين أجمعينَ عبدِك ونبيّك ورسُولك سيّدنا محمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم

* * *

أمّا بَعد حمدِ الله تعالى والثناءِ عليه والصّلاةِ والسَّلام على نبيِّهِ سَيّدنا مُحمَّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فإنّ من فضلِ الله سبحانَهُ وتعالَى بعبادِه المسلمين عامَّةً ، وبطلابِ العلمِ منهم خاصّة أن يسّر لهم طريقُ الأخذ ممّا اكتنزَه في كتابِه العظيم الذي أنزلَه على عبدِه ونبيّه ورسُولِه سَيّدنا محمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وأنبأهم بذلك في سورة (القمر) قائلاً سُبحانَه وتَعالَى : ﴿ **وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ** ﴾ (القمر:١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) مكرّرًا هذا في السُّورةِ نفسِها

* * *

والذِّكر الذي يسّر الله عزّ وعلا القرآن له إنّما رَأسُه تيسيرُ تلاوتِه وتدبرِه وتيسِيرُ العملِ بِه . وقد قيّضَ اللهُ تعالى لتعلِيم تلاوتِه وترتيلِه ثلّة من أهلِ القُرآن احتشدوا محتفلين ومتعاونين في هذا ، وقيضَ ثَلّةَ أخرَى لتعلِيم تدبّرِه واستنباطِ ما هو مكنوز فيه من معانِي الهُدى دقيقها وجليلِها كلٌّ على قدرِ ما يُطيقُ وما يملك من أدواتِ التّلقّى . وكلٌّ بمقدار ما يتسعُ وعاؤه ـ وَوعاءُ طالبِ العلمِ قلبُه ـ وكلّ على قدرِ طهارةِ ذلكِ الوعاء ، فإنّ الكريم في دنيا النَّاسِ لا يمنحُ عطاياه لمن لم يكن وعاؤه نظيفًا طاهرًا .

ومن لم يكن قلبُه طاهرًا من أدنى الشرك تعطّل عن أن يسمع . وتعطّلُ القلبِ عن أن يسمعَ هو تعطله عن القيامِ بوظيفته الّتي خلقَ لها ، ومن أشد ما يلحقُ هذا بالقلبِ الغفلةُ عن ذكرِ الله تعالى ومراقبته ، والانهماك في المعصية ، فإذا ما وُقيَ ذلك كان أهلاً لأن تَتَوَافدَ عليه ضُروبُ الفهمُ ، وتَتَرادَف فنونُه . ﴿ **إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ (الأنفال:٧٠)

فالقلبُ المعافَى من داءِ الغفلة وَالشهوة والشبهة والتلذذ بالمعصية هو المهيئ للتلقّي ، وقد أنبأنا أهلُ المعرفةِ بالطريقِ إلى الله تعالى أنه «لَو

أُعطِي العبدُ بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه ؛ لأنه كــلام الله ، وكــلامه صفته ، وكما أن ليس لله نهاية ، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه »[1].

وكلام الله غير مخلوق ، ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهو محدثة مخلوقة .

والله تعالى من بعد أن يُقسمَ على هذه النّعمة التي يُبصرها كلُّ ذي عين ويسمعها كلُّ ذِي أُذنٍ آمن بالقرآن أو لم يؤمن ، يحثّنا على التّذكر ، قائلا : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧)

وكلّ الَّذِي بَسطتُ لَكَ القَـولَ فيـه بَيـانٌ عمَّـا يُؤهّلُـك لأَنْ تَسـلُكَ السَّـبيلَ القويمَ إلى الفهمِ عنِ الله تعالى ، وبيانٌ لِما يُعيقُـك ، فـلا تـدخلُ علَـى ربّـك سُبحانَه وتعَالى .

ونزولاً على ما دعَا إليْه اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعالى رغبتُ فِـي أن يكـونَ لـي مِـن هذا نصيبٌ أتقرّبُ بِه إِلَى الله تعالى ، لعلّه يَرضَـى . فـآثرتُ أن أعمـلَ علـى تثويرِ بعضِ معانِي الهُدي في سُورةٍ مـن أوائـل السُّـورِ الـتي نزلـتْ في صـدر الدّعوةِ: سُورة « المسد »

* * *

وجهُ اصطِفاءِ النّظرِ في تَأويلِ منهج الإبانةِ في سُورة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ)

حرَصتُ عَلَى أن أتخذَها أنموذجًا لبيانِ مَدَى أثر مقصدِ السّـورة التَّربـويّ التَّثقيفِيّ للنَّفسِ الإنسانيّة وموضُوعها في اصـطِفَاءِ مـنَهجِ الإبانـةِ ، والأَسـالِيبِ الَّتي تُحقّقُ ذَلِكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِن الأهميَّةِ الاجتِماعِيَّةِ للمعرِفة العلميّةِ بِما هُو

---

(١) التَّفْسِيرُ البَسِيْط ، للواحدي (ت: ٤٦٨هـ) تحقيق مجموعة من الباحثين ، في جامعة الإمام ، عمادة البحث العلمي ، بالرياض ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ ، ١/٤٢٨

مَكنونٌ فِيها مِن مَعاني الهدى الّتي يفتقرُ إليها جمَهرةُ المسلمين في عصرِنا هذا ، فَإنَّ لِلنظرِ فيها الآن أهميّةً اِجتماعِيّةً تصطَحبُ الأهميّةَ العِلميَّةَ لِلنظرِ فِيها وَفقَ هذا المنهجِ .

هذه الأهمية الاجتماعيةُ تتمثّل في أُمور :

الأوّل : أنّها سُورةٌ تُبين عن مصيرِ من كان جامعًا بيْن الكفران بالله تعالى وصدّ الناسِ عنه سبْحانه وتعالى ، والسّعي الحثيثِ إلى إقامة العوائقِ والكُدَى في طريقِ الدَّعوة ، ثمَّ إلى ذلك كلّه التجرّدُ من كل معنًى آدميّ ، وذلك ما يُنادي عليْه حالُ أبي لهبٍ مع النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فِي الأسواق ، فقد كانَ يلازمُهُ ، ويتفَرّغُ لتفريقِ النّاسِ عنه ، وهو فَوقَ هذا فارقَ بني هاشم جميعًا وانحازَ إلى قريشٍ في حصارها رسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في شِعب بني هاشِمٍ ، ولم يبق مِن بَنِي هاشمٍ غيرُ أبي لهبٍ وولده يناصرون المقاطعة الاقتصاديّة والاجتماعيّة . (١)

مثلُ هذا الذي كان من أبي لهبٍ منذ خمسة عشر قرنًا أنت واجِدٌ نظيرَه وفوقَه من ثُلّة (شلة) يتكلمون بلساننا ويعيشون على أرضِ الإسلامِ ، ويكيدون لأهله ولوطنِهِ ، ويناصرون أعداءَه ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ** ﴾ (النحل:١٠٧)

﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ** ﴾ (التوبة:٣٢)

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٨٢/٢ ، ومعه كتاب الرَّوض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام . تأليف : السهيليّ (ت:٥٨١هـ) تحقيق : عمر السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ ، ٣٨/٤

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(الصف:٨)

والثاني : أنَّها سُورةٌ تُبينُ عن الأثر السَّيئ المُدمِّر للمرأة في زوجِها وأهلِ بيتِها وفي أمّتِها ممَّا يستوجبُ حُسنَ البَصرِ بحال أمثال هذِهِ المرأةِ المُدمّرةِ ما حولَها،وهنّ اليوم في بعضِ الأوطانِ العربيَّةِ والإسلامِيّة غيرُ قليل.

والثّالثُ : أنَّك ترَى احتفال حفنةٌ من سَحرةِ إبليس الذين مَردُوا على الكذب وإشاعة الفتنة والفاحشةِ وثلة من العلمانيين وفرقةٌ من الماسُونيين كَلِفُوا بالمبالغةِ في تثويرِ الدَّعوةِ إلى ما يُسمّى بتحريرِ المرأةِ ، وما ذلك إلا لمطامع في نفُوسِهم الخربة .

إنَّ تحرير المرأة حقٌّ لها علَى غيرِها ، وحقٌّ لها علَى نفسِها . فريضةٌ عليْها أن تحوزَه وأنْ تَعضّ عليْه بِنواجِذِها شَريطةَ أن يُفهمَ تحريرُها فهمًا موضُوعيًّا صوابًا ، وشَريطَةَ أن يُحرَّر مَدلولُ مُصطَلحِ التّحرُّر ، وشَريطةَ أن يُعيَّن ما الذي يرادُ أَن يُتحرّرَ مِنه ، وبأيِّ سبيل يكونُ التَّحرّرُ .

ذلك أمرٌ مُهمٌّ كمثلِ أهميّةِ تحقيقِ تَحرير المرأةِ ، لأنّ تحريرَها على وفق الكتابِ والسُّنة هُو جُزءٌ مِن الاستجابةِ لهدي النَّبِيِّ صَلّى الله عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حين دعَا أُمَّتَهُ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» .

فَمِن حُسنِ الاستيصاء تحريرُها ممَّا يُخرجُها عَن عِزّها وكرامَتِها ، وهَذا لا يكونُ إلاَّ بالالتزامِ بما جاء بِه بيانُ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّة ، ولا يَكونُ إلاّ ببيانِ ما يمُكنُ أن يخرجَها مِن هذا ، فيجعلَها على منِهاج أمِّ جميل ، أداةَ تَدمير زَوجِها وأهلِها . ثُمَّ لِنفسها .

وعُظم ما حولنا يَسعَى إلى إحالة المرأة أمَّ جميل ، وإحالة كلّ زوج إلى أبي لهبٍ ، وهذا لن يكون أبدًا ـ إن شاء الله تعالى ـ ما دام في صُدورنا نفسٌ

يتردّدُ ، وإن فعلوا بقـوتهم وطغيانهم وقوانينهم الجـائرة الفاجـرة وفسوقهم ما فعلوا .

المهمُّ أنّنا الآن أحوجُ ما نكونُ إلى أن نُبِينَ عن الأثر السُّوء المُدمِّر لِجعلّ أم جميل المرأة المثالية في مجتمعنا .

* * *

وهنالك باعثٌ متعلقٌ بالنَّظرِ البَلاغِيّ في بيانِ الوحيِ يتمثّلُ في إبرازِ القِيمةِ الاجتماعيّةِ للتفكير البلاغيّ ، ولاسيّما فِي عصرِنا هـذا الّـذِي يُـرادُ أن يُـربطَ فِيـه البحـثُ العِلمـيّ بشقيه : الإنسـانيّ والتجـريبيّ (العملـي) بحاجـةِ المجتمعِ ، فيكونُ في خِدمتِهِ وتحقِيقِ تقدّمِه ليكون العلم نافِعًا صانِعه ومَن صُنِع له ، فالإسلام لا يعرفُ مبدأ العلمِ للعلمِ والأدبِ للأدب ، بلْ كلّ شيْءٍ لِغايةٍ أسمى .

التفكيرُ البلاغيّ ليست غايته الرئيسة التي يُرمـى إليْهـا الاستمتاعَ الأجـرد بفيوض الجمال اللّسانيّ والعقليّ ، مع أن هذا الاستمتاعَ في نفسِه ذو قيمـة تثقيفية ترويضيَّة للنَّفسِ الإنسانيّة ، لِما فُطرت عليْه النفسُ الإنسانيةُ مِن محبّةٍ للجمال في جوانبِ الحياةِ كلّها محسُوسِها ومعقُولِها ، إلاَّ أنّ تبصـرَ سِماتِ الجمـالِ في تَفـنُّنِ اللّسـانِ في الإبانَـةِ عَـن مكنـونِ الصّـدورِ هـو ضـربٌ مـن الإحسان في تربيةِ النَّفسِ وإعدادها للقيامِ بما خلقتْ له من تعميرِ الحياةِ مـن جهة ، والإخباتِ لله سبْحانَه وتَعالَى من جِهةٍ أخرى .

والتفكيرُ البلاغي في البيانِ العَليّ المعجزِ : بيانِ الوحيِ قُرآنًا وسُنّة ، وفِي البيانِ العالِي البديع : بيانِ الإبداعِ الإنسانيّ شِعرًا ونثرًا هو الذي يمنحُ الـنَّفسَ الإنسانيّةَ فيضًا ممَّا يُثوِّرُ عزيمتَها على الفعلِ الخالقِ ، وعلى أن تُعلِي الحيـاةِ في سبيلِ اللهِ تعالى على الموتِ في سبيلِ اللهِ ، فالله عَزّ وعَلا خلقنا لِنحيا في سبيلِه ، لا لأن نموتَ في سبيلِه كما يحسبُ غيرُ قليلٍ .

هو جَلّ جلالُه ما شرعَ لنا الموت في سبيلِه إيمانًا واحتسابًا إلا إذا تعـذَّرَ علينا أن نحيا في سبيلِه إيمانًا واحتسـابًا ، فحثَّنـا علـى أن نمـوتَ في سـبيلِه تعالى ليتحققَ لغيرِنا الحياةُ في سبيله تعالى ، فيكون موتنا هذا سببًا في تلك الحياة في سَبيلِ الله تعالى العامرة للأرض بطاعة الله جلّ جلالُه .

التَّفكيرُ البلاغيّ في بيانِ الـوحيِ قُرآنًـا وَسُـنّةً يَطمَـحُ فِيمـا يَطمَـح إلى أَن يَعملَ علَى تحقِيقِ شيْءٍ بَالِغٍ مِن هَذَا التّشـويرِ النَّفسِـيِّ لِلحيـاةِ فِـي سَـبيلِ اللهِ تَعالَى ، وَتَعمِير هَذِهِ الحياةِ .

وَهذَا يُحقَّقُ مِن زاوِيَتَيْنِ :

زَاوِيَةِ التبَصُّرِ في منهجِ بيانِ الوحيِ قُرآنًا وَسُنّةً في إفهامنا حقيقـةَ النَّمـاذج المُثلَـى لمـن قـاموا بتحقيـقِ الحيـاةِ في سَـبيلِ اللهِ سـبحانَه وتعـالى ، وإعانَـةِ الآخرينَ علَى ذلِك ، ومنهـجَ تلك النمـاذجِ وأدواتهـم التِـي اتَّخـذُوها لإنفــاذِ ذَلِكَ .

وزَاوِيةَ التّبصُّرِ في مَنهج بَيَانِ الوَحيِ قُرآنًا وسُنّةً وفِي إفهامِنا نمـاذجَ مِمّـن اتَّخَذُوا الإفسـادَ في الأرضِ وإدارةَ الإفسـادِ فِيهـا وَرِعايـةَ سَـدَنَتِهِ رسَـالةَ حيـاةٍ والتّبصُّرِ في مَنهجه فِي إفهامِنا منهجَهم في هذا وإفهامنا الأدوات الَّتِي مارسُوا بها هذا الإفسادِ حتّى نكونَ علَى بصِيرةٍ بهم ، فلا نُخـدعُ بِمعسُـولِ ألسـنتهم ، ولا نبهرُ بما ينشرُونَه من حَولِنا مِن مغرياتٍ تزلّ فيها القدَمُ ، فـلا تكـونُ إلا الحالقةُ الحارقةُ .

التفكيرُ البلاغيّ في بيان الوحي مَهمومٌ ـ عند أهل البصيرةِ النافذةِ ـ بذلك ، أو ينبغِي أن يكون كذلك . وهذا مأمٌّ جليلٌ ، وحمـلٌ ثقيـلٌ لا يوفِيـه بعـضَ حقّه إلا رجالٌ صَدقُوا ما عاهدُوا الله تعالى عليْه .

ونحنُ هنا بصددِ النّظرِ في الزَّاويةِ الثانيـة ، فـإنّ التّخليَـة تسـبِقُ التَّحلِيـة ، فنغدو إلى التّبصّرِ في إبانةِ الوحيِ وتصويرِه نموذجًا من أكابرِ أهـلِ الإفسـادِ في الأرضِ ومن أكابِرِ الصّدِ عن سبيلِ الله تعالى ، كيما ندركَ حالَه مَسيرًا في الأرضِ وحالَهُ مصيرًا يَومَ العرضِ ، فلا نكون قط من أحفادِه ، ولا نكونُ قـطُّ مِن مُهادِنِيهم أو منْ مُداهِنِيهم ، وإنْ عَلَتْ أصواتُهم ، فأزعَجَت القُلوبَ ، وإنْ علتْ سياطهم فأدمَتْ الظُّهورَ .

* * *

عمودُ المنهج : يقُوم مِنهاجُ النّظـرِ هنـا علـى الجمـعِ بـيْن خاصـيّةِ مـنهج البحثِ العلمي (الاستقرائيّ المقابل للمنهج الاستدلاليّ) وخاصّيّةِ منهج قراءة النّصّ (المنهج البياني) [1]

---

(١) يضع عبدُ القاهرِ لنا في كتابيه « أسرارِ البلاغة » و« دلائل الإعجاز » نصـين جلـيلين يخلصان لنا عمود منهج البحثِ العلمي ، ومنهج قراءة البيان .يقُول :

« واعلمْ أنَّ غرضِـي فِـي هـذا الكـلامِ الّـذِي ابتَدأتُـه ، والأسـاسِ الّـذي وضـعتُه ، أن أتوصّلَ إلى بيانِ أمرِ المَعانِي كيف تختلفُ وتتَّفقُ ، ومِن أين تجتمِعُ وتفترِقُ وأفصّلَ أجناسَـها وأنْواعَهَـا ، وأتتبّـع خاصـّها ومُشَـاعَها ، وأبـيّن أحوالَهـا في كَـرَمِ مَنْصِبِها مِن العقلِ ، وتمكُّنَها في نِصَابِهِ ، وقُرْبِ رَحِمِها منه ، أو بُعدها حين تُنسبُ عَنهُ ، وكَوْنِها كالحَلِيفِ الجارِي مَجرَى النَّسَبَ ، أو الزَّنيمِ المُلصَق بالقوم لا يقبلونَه ، ولا يمتعضونَ له ولا يَذُبُّون دونه »

(أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليـه : محمـود محمد شاكر ، ط : مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ص ٢٦)

ويقُول في « الدلائل »:

« وإذ قد عرفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ « النظْمِ » على مَعاني النَّحو ، وعلى الوجُـوهِ والفُـروق الّتي مِن شأْنها أَنْ تكونَ فيه ، فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايـةٌ تقـفُ عندها ، ونهايةٌ لا تجدُ لها ازديادًا بَعْدَها .

==

ومن ثَم فإنّي أعمَدُ هنا إلى النَّظرِ في سُورةِ (المسد) مستبصِرًا ما اتخذته السُّورة مِن أَساليبِ الإبانةِ عمَّا هُو مكنونٌ فيها مِنْ معاني الهُدَى ، وعلاقةِ ذلك بمقصُودِها الّذي تهدِي كلُّ معانِيها الكُلّيّةِ والجُزئيّة إليْهِ . وعلاقتها بمعانِي الهدَى في سورٍ أخرى تُجاورها أو تقابلها موقِعًا ووظيفةً في نسقِ التِّلاوةِ

* * *

عمود منهج الإبانة عما أريدُ من تثويرِه من معاني الهدى :

إنِّي لأَعلَمُ عِلمَ يقين أنَّ لِمنهجِ البحثِ العِلميّ أسلوبًا يَتّسِمُ بالدّقّةِ والاقتصادِ اللغويّ . ويبتعدُ عن المجازاتِ والخطابيةِ التأثيريّةِ . ويبتعدُ عن توجيهِ الخطابِ للقارئ . ويبتعدُ عن التوجُّهِ إلى استفزازِ المشاعر . ويبتعدُ عن استعمالِ أساليبِ التوكيدِ . ويبتعدُ عن الاستطرادِ ، وعن إثقال الهوامشِ

== ثم اعْلَمْ أنْ ليست المَزِيّةُ بِواجبة لَها في أنْفُسِها ، ومِنْ حيثُ هِيَ عَلَى الإطلاق ، ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ ، ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ ، واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ».

دلائل الإعجاز لعبد القاهر قرأه وعلق عليه محمود شاكر ، ط٣ ، سنة ١٤١٣هـ ، دار المدني بجدة ، ص ٨٧

هذه الثّلاثة التي عيّنها عبدُ القاهرِ مثابةً لتحقّقُ المزيّة لأي خصُوصية تركيبية :

«المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ»

«موقعِ بعضِها من بعضٍ»

«استعمالِ بعضِها معَ بعضٍ».

ممّا قلّ اعتناءُ غيرِ قليلٍ مِن طلابِ العلم ببلاغةِ العربيّةِ عامّة ، وبلاغَة بيانِ الوحي قُرآنًا وَسُنّة خَاصّةً بالوفاءِ ببعضِ حقّهِ ، فهمًا وتطبيقًا وهو أمرٌجديرٌ بحسن تبينه تصورًا نظريًّا وتطبيقه ممارسَةً تأويليةِ .

بالتعليقاتِ . ويبتعدُ عن كلّ ما يُمكن أن يستغنَى عَنه ويبقَى أصلُ المعنَى قائمًا .

أعلمُ بِحقٍّ ذلك ، ولكنَّ الذي بيْن يديك ما هُو بِبحثٍ علميّ ، ومَا لِذلك قمتُ وفزِعتُ .

هذا كتابٌ يقوم إلى أن يثوّرَ معانِي الهُدَى فِي سُورةِ «المسد» وأن يُوصلها إلى قلب القارئ ، وأنْ يقيمَها فيه ، ويوطنَها ، وأنْ يملأَهُ بها ، فتفعلَ فيه ما يحملُه على أَن يفعلَ بما فِيها مِن الهدى .

كتابٌ يسعَى إلى أنْ يرسُمَ لك صورةَ أبي لهبٍ وامرأتِه مسيرًا ومصيرًا ، كما جاءت بِه سُورة «المسد» حتَّى تَفرَّ أنت ومن حولك مِن أبي لهبٍ وامرأتِه ، فلا تكونوا من أحفادِهما ، فإنَّ أحفادَهما يتكاثرون تكاثُرَ الجرادِ .

ومن ثَم حملتُ نفسِي حملاً على أن أسلُكَ أسلوبًا آخر غيرَ ما يُلزمني بِه أدبُ البحث العلمي في الإبَانَةِ عَن المَعَانِي[1] .

حملتُ نفسي علَى أن أسعَى إِلى تثويرِ المعاني وتمكينِها وتكثيرِها وتفعِيلِها ، وأن استطردَ حين أرَى أنَّ الاستطرادَ سيُعينُ علَى الوُصول بالقارئِ إلى ما أراه خيرًا له ، فاتخذتُ مِن الهوامش حقولاً أزرعُ فيها أفكارًا ، وميدانًا أُبارزُ فيه بكلمة الحق إيمانًا واحتسابًا باطلا كثرُ أنصارُه .

ومِن ثَم أهِيبُ بالقارِئ أن لا ينصرِفَ عَن قِراءة الهوامشِ ، فخيرٌ له إن شاءَ الله تعالى أن يهتمَّ بالهوامش في هذا الكتاب ، اهتِمامَه بالمتن ، فإن في هذه الهوامشِ ما يَنفعُه .

---

(١) قلت هذا حتّى لا يقتدي بي هنا طلابُ الدراسات العليا في بحوثهم ، فيكتبون كما كتبتُ هنا .

وحرصتُ علَى أن أجعلَ بياني قريبًا من جمهرةِ القراء ، فـإنّي أخشَـى أن تمتدّ إلى هذا الكتابِ يدُ من ليسَ بطالـبِ علـمٍ ، فيعوقُـه شـيْءٌ مـن حزونـة البيان عن المضيّ في القراءة ، فأخسرُ صُحبته ، فتحاشيْتُ كثيرًا حُزونة البيان.

وظنّي أن هذا المبتغَى يجعلُ القارئ يغفرُ لنا ما صنعتُ مكرهًا غير بطلٍ.

والله تعالى هو المستعانُ وحده على طاعته علـى الوجـه الـذي يرضـيه ، فيُرضينا بفيضِ مَحبته ، ورعايته ، وحفظه ، وتقريبه لنا ، وتفضُّله علينا بستره الّذِي لا ينكشفُ لأحدٍ أبدًا من العالَمين في الدّنيا والآخرة .

إنّه ولِيّ ذلك والقادر عليه وهُوَ المُتفضَّلُ بِـه علـى مَـن يشـاءُ كَمـا يشـاءُ ومتَى شاء سبحانه وتعالى .

وصلّى الله وسلّمَ وباركَ على عبـدِه ونبِيّـهِ ورَسُـولِه الأمـين سـيّدنا مُحمـد وعلَّى آلِه وصحبِه وورثتِه من أهل العلم . والحمدُ لله ربّ العالمين .

تحريرًا في غرة من ذي الحجة ١٤٣٨هـ

الموافق

وكتبه

محمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com

الفصلُ الأول

أمَّا قَبلُ
بيْن يدي السُّورة
مُراجعاتٌ مَنهِجيّةٌ

ممَّا يحرصُ عليْه أهلُ العلم قبل تدبّر سورةٍ من السّور استجماعُ شأنِ هذه السُّورة ، وما يتعلّق بنزولِها زمانًا ومكانًا وسببًا عامًّا أو خاصًّا ، وموقعها بين السُّور في سِياقِ النّزول ، وسياق التّرتيل ، ومقدار عدد آياتها ، وكلمها ، بل وحروفها ، وما وردَ من رواياتٍ صحيحةٍ في تلاوتِها ، وما ورد من صَحيحِ السّنةِ في فضلِها . وغيرُ ذلك كثيرٌ ممّا تزخرُ به أسفارُ علومِ القرآنِ الكريمِ ، وأنت لا تجدُ كتابًا في النَّاس قد عُنِي به أهلُه وغيرُ أهلِه كمثلِ ما أنت تجدُ القرآنَ الكريم .

وكذلك لا تجدُ كتابًا قد تنادَى غيرُ المؤمنين به وتكاتفُوا وبذلوا من جهدهم وأموالهم وأعمارهم في تثوير الإفكِ والشُّبهاتِ الواهنةِ حولَه في عقُول الدّهماء من غيرِ المؤمنين به ومن أَشباهِ المؤمنين بِه ، ولم يستطِيعُوا برغمٍ مِن ذلك أن يصِلُوا إلى شيْءٍ مما يَطمحُون الوصُولَ إليه كمثل ما أنت تجدُ القرآن الكريم ، فإنّ اللهَ سُبحانَه وتَعالَى الّذي تكفّلَ بإنزالِه على النّبيّ مُحمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم هو الذي تكفل بحفظِه: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩)

ومـن عواملِ حفظِـه حمـلُ العلمـاءِ الأثبـاتِ إلى التعبّـد بالعنايـة بتعلّمِـه وتعليمِه واستفراغِ الجُهد والعُمرِ في إتقان البُحوثِ العِلميّة الرَّصينة المُتعلّقة به .

وحُسنٌ أن أُوجزَ هنا شيئًا من شأن هذه السُّورة لعـلّ في ذلـك مـا يُعـينُ علَى حسن التَّلقّي والفَهمِ عن الله سُبحانَه وتَعَالَى .

* * *

اسمها :

ممّا عُنِي بِه أهلُ العلم بالقُرآن النّظـر فِيمـا سُميت بـه السُّور ، ومـا هُـو مرفُوع إلى النّبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، ومـا هـو موقـوفٌ على الصحابة رضِيَ اللهُ عَنهم ، وما هُو من تسمية التّابعين والأئمة مـن أهـل العلم .

وهم إذ يشتغلـون بذلك إنّما يبعثُهـم علَى ذلك علمُهـم أنّ في التّسـمية ما يهدِي إلى خصُوصيّةٍ فِي هذِه السّورة ، وهـذا يعنِـى التفـاتَهم إلى أنَّ اسـمَ السَّورة عُنصرٌ من عناصرِ بَراعةِ استهلالِها .

و«بَراعةُ الاستهلال» في عِلمِ العربيّة مِن معـالِم تماسُـك البيـانِ وتلاحـظِ معانِيه وانصرافِها إلَى مَأَمٍّ ومَحَـجٍّ وَمركـزٍ تـدورُ عليْـه هـذِه السُّـورة ، واسـمُ السُّورة ، وعُلوانها (عنوانها) هادٍ في لُطفٍ إلَى مَعلمٍ مِن معالِم ذلك المركزِ .

وهُم بذلك الفهمِ كانوا أسبقَ إلى فِقه خصائصِ البيان العالي البـديعِ ، بـل العَليّ المُعجز ، فهم أهل البلاغةِ فهمًـا وإفهامًـا ولم يكونُـوا قـطُّ عالَـةً علَـى غيرهـم فضلاً عن أن يقتاتُوا فُتـاتِ موائـد الأعـاجم ورجيـع الأُمـمِ في العلـمِ بأصُـول فهـم البيـانِ العـالِي ومناهجـه ، كمـا يفعـل المُحـدَثون مـن النقـدة والمثقّفين .

سُميت هذه السّورة سورة « تبت» وسورة « المسد» وسورة « اللهب» وهذه التَّسمية لها علاقة بمركز المعنى في السورة ، فكلٌّ من هذه الأسماءِ الثلاثة تلفتُ إلى ما يكون مصيرًا لكلِّ من عَرفَ الحقَّ وعانَدَه استكبارًا في الأرضِ ، فقد كان أبو لهبٍ عالمًا بأنَّ ابن أخيه سيدنا مُحمد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم على حقٍّ مبين ، وأنّه صادقٌ في كلّ ما ينبئُ بِه ، ولكنَّه تحت تأثيرِ امرأتِه عليْه عاند واستكبرَ ، فكان على طريقِ إبليس الذي ما مَنعه مِن السُّجودِ طاعةً لله ربّ العالمين سِوَى استكباره .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)

وسورةُ (المسد) مكية نزلت في السَّنوات الأولى من البعثة :

روى الشيخان في صَحيحيهما : البخاري في كتابِ (التفسير) ومسلمٌ في كتابِ (الإيمان) بسندهما عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما قَالَ : لَمَّا نَزلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤) ورَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهتَفَ: « يَا صَبَاحَاهْ». فَقَالُوا مَنْ هَذَا ؟ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ . فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟». قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا . قَالَ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

قَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ ، مَا جَمَعْتَنَا إِلاَّ لِهَذَا ، ثُمَّ قَامَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:١)

وَقَدْ تَبَّ ، هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ . (النّص للبخاريّ)

وروى الحميدي في مسنده عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِى بَكْرٍ رضِيَ اللهُ عنهما ، قَالَتْ : لَمَّا نَزلَتْ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد:١) أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ : أُمُّ

جَمِيلٍ ابْنَةُ حَرْبٍ ، وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ[١] وَهِيَ تَقُولُ : مذمماً أَبَيْنَا ، وَدِينُهُ قَلَيْنَا ، وَأَمْرُهُ عَصَيْنَا . وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ قَرَأَ قُرْآنًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَلَمَّا رَآهَا أَبُوبَكْرٍ قَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ »..[٢]

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » .

وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ ، كَمَا قَالَ وَقَرَأَ : ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ (الإسراء:٤٥) فَأَقْبَلَتْ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي .

فَقَالَ : لاَ ، وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ » .[٣]

---

(١) الفِهْرُ الحجر قَدْرَ ما يُدَقُّ به الجَوْزُ ونحوه ، وقيل هو حجر يملأ الكف ، والجمع أَفْهار وفُهُورٌ .

(٢) قد يفهمُ غافلٌ عجلٌ من قول أبي بكر الصّديق رضيَ الله عنه لرسُول اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلَّم : قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَاكَ . « أنّ في هذا ما يُفهم منْه ما يقدح فِي رجولَةِ أيٍّ منهما . هذا لا يردُ إلا على قلبٍ غافلٍ عجلٍ لا يعقِلُ سُنن الرُّجولَةِ عندِ العربِ يومَ كانَ العربُ عرباً .
مِن سُنن الرجولَة ألا يقابلَ الرَّجلُ إساءةَ المرأة له ، فالرَّجل لا يمدنّ يدَه ، ولا لسانَه إلى امرأة ،وإن قالتْ ما قالت ، وإنما الأمر يكونُ مع من يتولّى أمرها ، فأبو بكر رَضيَ الله عنه خاف أن تتطاول على رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم متترسةً بسنن الرجولة التي تمنع من الردّ عليها قولاً أو فعلا .

(٣) لقول الصّديق رَضي الله عنه : « لا ، وربِّ هذا البيْتِ ما هجاكِ » وجهان :
الأوّلَ : أنّ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم لَم يهجُها من عندِ نفسِهِ حتَّى يُنسبَ الفعلُ إليْه على الحقِيقةِ ، بل الذي هجاها هو الله سُبحانَه وتَعالَى ، ==

قَالَ : فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ : قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّى بِنتُ سَيِّدِهَا .... » [١]

من هذا الذي مضَى يتبيّن لك أنَّ هذه السّورةَ قد نزلت جملة واحدة في العهدِ المكيّ ، من قبل وفاة أبي لهب التي كانت عقب « غَزوةِ بَدرٍ » .

وهذا دالٌّ على أنَّها إخبارٌ بغيب سيقعُ ، وهذا الإنباء وجهٌ قاطعٌ من وجوه الإعجازِ الّتي لا تتأتَّى المُنازَعةُ فيها أو التّوقف . وهو مِمّا يُفحِمُ كلَّ مَن يُعانِدُ فِي إعجازِ القِرآنِ .

والقرآنُ هنا لم يقل : ستتب يدا أبي لهب ، بل قطع بالأمرِ وكأنَّه قد حدَث ، بل هو حدَثَ فعلا بمجردِ أن أخبرَ الله سُبْحانَه وَتَعالَى بِه ، فهو خبرٌ حقٌّ ، جاء الواقعُ لِيصدِّق هذا الخَبرُ . فجمع بين أنّه حقٌّ ، وأنّه صدقٌ .

وكانَ بملك أبي لهبٍ أن يكذِّبَ القرآنّ ، فيؤمنَ ، فينادِي : ألا إنّ مُحمَّدًا يقُول إنّي خَسِرٌ هالكٌ ، ألا اشهدُوا أنّي آمنتُ بما أنزَلَ ، فيُفسِدُ عليْه دعوتَه ، ولكنّه صُرف إلى قدر الله عزّ وعلا صرفًا ، ممّا يدلُّ على سُلطانِ الله سُبحانَه وتَعَالَى وهيمنته ، وكان هذا جديرًا بأن يجعلَ كلَّ من كانَ حولَ أبي لهب مُقبلا على ما جاء به النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

* * *

== فما تلاه إنما هو ممَّا أنزلَه الله سُبحانَه وتَعالَى عليْه . وهذه صَفعةٌ صِديقِية بالغةٌ .

والآخر : أَنّ هذا ليس بهجاء وشتم ، بل هو إخبارٌ بما سيكون لها يوم الدّين ، وفي هذا من التّهدِيد لها ما فِيه . وهو ردٌّ بالغٌ علَى ما نعقت بِه من قبلُ .

وهذا الوجه الآخر هو الذي يصدر عنه من قالَ من أهلِ العلمِ في تأويل السُّورة إنّها إخبارٌ بغيبٍ مستقبل ، وليست بشتمٍ .

(١) صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص١٣٧ ، ١٣٨ .

وجميعُ آياتها كان الحرفُ الأخيرُ فيها هو «الباء» خلا الآية الأخيرة فخاتمتها «الدال» وهذا دالٌّ على أنّ اتفاقَ الآيات في خاتمة فواصِلها، وهو ما يسمّيهِ البلاغيون «سجعًا» ليس غايةً في نفسِه، بل الأمرُ مردُّه إلى المعنى، وما يقتضِيه سياقُ البيان، فكلُّ موضعٍ جاء فيه اتفاقُ الفواصلِ في الحرفِ الأخيرِ هُو من اقتضاء المعنى، وليس لتحقيق تناغمٍ صوتيٍّ أجرد من الفائدة المعنويّة، يقف على تلك الفائدة بعضٌ، ولا يبصرُها بعضٌ، فلا يجعل طالبُ العلم عجزَه عن أن يبصرَ الفائدةَ باعثًا له على نفيها. فكَمْ في الحياة مِن أشياءَ هي قائمةٌ لا نُبصِرُها، ولا يُمكنُنا إنكارُ وجودِها البتّة ..

* * *

مقصُودها

أهل العلم بكتابِ اللهِ تعالى على أنّ لكلِّ سُورةٍ من القرآن مقصُودًا أعظم هو محورُ معانيها وعقيدها، وكل معنًى كليّ من معاني معاقدها (فصُولها) مشدودٌ إلى هذا المعنى المحوريّ (المقصُود الأعظم) على نحو يكون غيرَ خفِيّ علَى متبصّر، وكلّ معنًى جزئيّ أيضًا هو مشدودٌ إلى ذلك المعنَى المحوري المركزيّ وإن كان أشدّ خفاء على غيرِ قليلٍ من النّاظرين من طلابِ العلم، حتّى إن ورد هذا المعنَى الجزئيّ على نحو الاعتراضِ أو الاستطرادِ.

وأهلُ تفسيرِ البيان القرآني وتدبره متفاوتون في العناية بإبرازِ هذا المقصُود الأعظم في بيانِهم، وإن كنت أذهبُ إلى أنّ الأئمة منهم مدركون ذلك المقصُود الأعظم، وإن لم يصرحوا بتعيينِه في تفاسيرِهم، لأنّهم مَهْمُومُون ببيان أصل المعاني التَّكليفيّة عقيدةً وشريعةً.

وهي معانٍ لا يتوقفُ إدراكُ أصلِها على تعيين المقصُود الأعظم ، لأنَّ العِرفانَ به مُعِينٌ على البَصَرِ بشَيْءٍ مِن المَعاني الإحسانيّة الزائدة على المعاني التكليفيّة عقيدةً ، وشَريعَةً .[1]

وممّا يَحسُنُ أن يكونَ طالبُ العلمِ بكتابِ اللهِ سُبحانَه وتعَالَى على ذكر منه أنَّ هنالك فرقًا بيْن «المقصُودِ الأعظم» : (المعنى أو الغرضِ المحوريّ) وأغراضِ السورة ؛ لأنّ أغراضَ السّورة إنّما هي أغراضُ الموضوعاتِ الّتي تتكوّنُ منها السّورةُ ، ولا سِيّما الطُّوال والمئين ، وهي أغراضٌ مَرحليّة ، بينما (المقصُودُ الأعظمُ) غرضٌ كليٌّ مِحوريٌّ ليس خاصًّا بموضُوعٍ مِن موضوعاتِ السّورةِ ، وإن تفاوتَ ظهورُه في بعض معاقدِ السّورةِ أو بعضِ آياتها ، فهو تفاوتُ ظهورٍ لا تفاوتُ حضُورٍ .

---

(١) عُظم المعاني الإحسانية في البياني القرآني هي معانٍ تثقيفية تحفز النفس على الإقبال على ما جاءت به المعاني التكليفية عقيدة وشريعة وأخلاقًا ، والأخذ بها أخذ بالعِطيَّةِ الربانيّة ، فتقوم النفسُ بما كلفت به عقيدةً أو شريعة أو أخلاقًا قيامَ محبة وتشرّفٍ لا أخذ تكليف وقسرٍ ، فتكون علاقةُ العبدِ بربّه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ علاقة محبة مزاجها الإجلالُ والخشيةُ المؤسَّسة على عظيم عرفان بجلال الله تعالى وكمالِه .

ومثل هذا يدفق في القلب من لذيذ الأنس بالله تعالى ما لو ذاقه ملوك الأرضِ لاشتروا مقدار شرو نقير منه بكلّ ما في أيديهم من الدنيا . ولكن أكثر الناسِ لا يعقلون ، فإن للعلم بالله تعالى وبكتابه وسنةِ رسُولِه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم لذة لو علمها الملوك لقاتلوا أهلها عليها ، ولكنه من رحمة الله تعالى بورثة الأنبياء أن جعل أكثر ملوك الأرض أزهد النَّاس في العلم بالله تعالى بل أزهد النّاس في سماع اسمه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

هذه أصُولٌ حرى بِطالبِ العلم بِكتابِ اللهِ تعالى أن يكون علَى ذكرٍ منها ، وأن تكونَ حاضرةً في قلبِه ولا تغيبُ ولا تَغيم في تـدبرِه واستنباطِه معـانِي الهدَى في أيِّ سُورةٍ من سورِ الكتابِ الكريم .

* * *

مقصود سورة المسد : تقريرُ أمرين رئيسين تحتاجهما الـدَّعوةُ في بـاكِرِ أمرِها ، وفي مَسيرِها كلِّهِ مِن بعدُ ، هذان الأمران :

الأولُ : تقرِيرُ جلالِ الألوهيّةِ في قلوبِ العبادِ .

والآخر : تقريرِ ثِقةِ أتباعِ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِـهِ وصَحبِه وسـلّم في انتِصار دعوةِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ وأهلِه ثقة تفتح القلوبَ للإسلام قبلِ أن تفتح البلدان .

وهذا التقرير أفهمه البيانُ القرآنيّ من خلالِ أسلوبِ الإنباء بـإهلاك أهـل الكفر وأعوانِهم في الدُّنيا والآخرة إهلاكًا لا تبقَى معه لهم شَوكةٌ .

هذا الإنباءُ مُمَثلٌ في تَبابِ رأسِ الكفر أبي لهب وامرأته وفِي هلاكِه . فَلن تنفعَه قُربَى نسبٍ ، وإن علا ، فالنبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسـلّم وهو مَن هو لا يملِكُ أن يدفعَ عَن الكـافرِ مِـن ذوي نسبِهِ ؛ لأنـّه صَـلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم عبدٌ لا يَملكُ من الأمرِ شيئًا . بل الأمرُ كلُّه لله سُبْحانَه وتَعالَى .

وهذا الإنباءُ الحقّ بإهلاكِ رأسِ الكفرِ يلزمُه الإنبـاءُ بنصـرِ الحـقّ وأهلِـه ، ممّا يقرّر الطمأنينة في قلوبِ القائمين له ، والقائمين به ، فإذا كلُّ بليّة عندهم هي تؤول يقينا إلى عطيّة ما كانوا للحقّ قائمين ، وبه وجودهم .

* * *

تلاحظ المعاني وتناصرها بين سورة «المسد» وسور أخر:

إذا ما كانتْ سُورة «المسد» قَد جاءت إِنباءً بتبابِ أهل الباطل مُمثلا في رأس الكفر أبي لهبٍ وامرأتِه وكان هذا يحملُ في رحمِه إنباءً بِنصرِ الحقِّ، وعلوّ أهلِه فإنَّ سورة «المَسَدِ» تؤكِّدُ بمفهومِها ما جاءَ مصرّحًا بِهِ فِي السّورَةِ قبلَها «سورة النّصر»:

سُورة «المسد» جاءت بُشرَى لرسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ولأتباعه وهم يومئذٍ قليلٌ مستضعفون بأنّ النَّصرَ لهم، وأنّهم على الحقِّ الّذي سَيبسُطُ سلطانَه وأنَّ من كان مِن حزبِ أبي لهبٍ وامرأته ليس لهم إلا الخسرانُ، وإنْ عَظُمَ فيهم المالُ ومتاعُ الدُّنيا بأسرِها، فلن يُغني عنهم شيئًا، فلا ينشغلنَّ أهلُ الإسلام بجمعِ متاعِ الدُّنيا إلاّ بما يكون عونًا على نصرِ الحقّ وبسطِ سلطانِه وتحقيق استغنائهم عن كلّ من ليس مِن الإسلام في شيْءٍ.

وسورة (المَسد) تنظرُ بعين الرِّعاية والتناصرِ معانِي الهُدى في سورة النصر وفي سورة (الكافرون) وفي سورةِ (الكوثر)، وفي سورةِ (الماعون) وفي سورة الفيل وسورة قريش:

إذا ما نظرت في كل من سورتي (الفيل) و(قريش) رأيت في الأولى (الفيل) تصويرًا لما حلَّ بمن عاند الحقّ ونعى على أهله واستكبر وصدَّ عن سبيل الله، ورأيت في الثانية (قريش) تصويرًا لما تفضل به الله تعالى على أهل الحرم وسدنته وحماته من رعاية وعناية وحفظ، فهلاك أصحاب الفيل هو الممثل لهلاك أهل الباطل الصادين عن الحق من غير قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلاك أبي لهب وامرأته هو الممثل لهلاك أهل الباطل الصادين عن سبيل الله تعالى من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأنت إذا نظرتَ في سورة (الماعون) رأيت أبا لهبٍ وامرأتَه هما النَّموذج الجليُّ الكاملُ للذي يكذِّب بيوم الدِّين والّذي يدعُّ اليتيمَ ، والّذي لا يحُضُّ على طعامِ المسكين ، فقد كان عظيمَ الشُّحِّ .

وأنت إذا نظرت إلى سورة (المسد) رأيت أنّها دالَّة بمنطوقها على هلاك الكافر ، ودالَّة بلازمِها على نصرةِ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وأتباعِه فدلّ لازمها على قولِه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ (الكوثر:١) ، ودلّ منطُوقها على قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ (الكوثر:٣)

وقد كان أبو لهبٍ أبترًا ، هلك ، وخسر خُسرانًا مبينًا ، ولم يُغنِ عَنه كمالُه وولدُه شيئًا .

هكذا تتلاحظُ معاني سورة (المسد) وسورة (الكوثر) مثلما تلاحظت معاني سورة (الماعون) .

وأنت إذا نظرت في سورة (الكافرون) ، رأيت منطوقها دالاًّ على أنّ رؤوس الكفر لن يؤمنوا ، وهذا ما دلت عليه سورة (المسد) فرأسُ الكافرين أبو لهب وامرأته لن يؤمنوا ؛ لأنَّه سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب في جيدِها حبلٌ مِن مسدٍ .

وَإِذَا مَا كانت سورة (النصر) دالّةٌ بمنطوقها على نصر الإسلام وهيمنتِه على العبادِ ، ودالَّةٌ بلازمِها على كسرِ شوكةِ الكُفرِ وأنَّه لن تكون له البتة دولة ، فإنَّ هذا الّلازم هو ما دلَّ عليه منطوق سورة (المسد) .

ومن وجوه التَّلاحظِ والتَّرابطِ أنَّ سورة (النّصر) وسورة (المسد) بمثابة الاستئناف البيانيّ من آخر سُورة (الكافرون) ، فهما جواب عن سؤال استحضره قوله تعالى : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) فكأنّ النبيّ صَلّى

اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم سـأل فما جزائي ؟ فقيل له : جـزاؤك النّصرُ ، والفتحُ ، فقال : وما جزاء أعدائي قيل له : الهلاكُ والخُسرانُ .

وقدم مثُوبتَه بالنّصـر والفـتح علـى عقُوبـة عـدوّه بالتـبّ والخسـران نشـرًا للبشرى ، وليقع النّبأ عَن مَثُوبَتِهِ صَـلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَـى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم مؤكّدًا حيثُ ذُكِـرَ مُصـرّحًا بِـه فِـي سُـورةِ (النّصـر) ومُلَوّحًـا بِـه فِـي سُـورةِ (المسد)[1].

وأمرٌ آخر سُورةُ (النّصرِ) تَلتفِتُ إلَى قَولِ الله عَزّ وجلّ : ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:٦) وسُورة (المسد) تَلتَفِتُ إِلَى قَوَلِه تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ (الكافرون:٦) هذا أشبه بردِّ العجزِ على الصدرِ من وجهٍ وبالإجمالِ والتفصيلِ من وجهٍ آخر .

ولكلٍ من الأسلوبين وظيفتُه فِي إيصَال المعنى إلى القلبِ بأحسـن صُـورة مِن اللفظِ وتمكينه فِيه وتوطينه ليَفعل فيه ما يجعلُه قلبًا قادرًا علـى أن يفعـلَ ما يرَاد له أن يفعل في هذه الحياةِ ممّا يُرضِي الله سبحانَه وتَعالَى .

تبيّن لك أنـّه إذا ما كانت سُورةُ (النّصر) من أواخرِ ما نزلَ من كتابِ ربنا تعالى علَى نبيّنا صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وأنبأ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم أن فِي نزولها نعيّ له ، وكذلك فهم منها سيدنا ابن عباسٍ رضِيَ الله عَنهما[2]

---

(١) مفـاتيح الغيـب للـرازيّ ، ط .٣ ،١٤٢٠هــ ، دارإحيـاء الـتراث العربـي . بـيروت ، ٢١١/٣٢

(٢) روى أحمد في مسنده بسنده من حديثِ ابن عباس حدثنا محمد بـن فُضَـيل حـدثنا عطاء عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس رَضي الله عنهما قال : لما نزلـتْ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) قال رسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : «نُعيتْ إليّ نفسي» ، بأنه مقبوض في تلك السنَة». ==

== قال أحمد شاكر في تعليقه على مسند أحمد عن هذا الحديث : إسناده صحيح ، مسند أحمد . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط . ١ ، ١٤١٦هـ ، دار الحديث ، القاهرة ٤٣٥/٢ ، حديث رقم : ١٨٧٣

روى البخاريّ في كتاب (المغازي) من صَحيحِهِ بِسَنَدِهَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضى الله عنهما ـ قَالَ كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِى مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا ، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُه فَقَالَ إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ .

قَالَ فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ مِنِّى فَقَالَ مَا تَقُولُونَ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ ﴾ (النصر:١،٢) حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ، إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نَدْرى . أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا . فَقَالَ لِي : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ لاَ . قَالَ : فَمَا تَقُولُ ؟

قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم ـ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) فَتْحُ مَكَّةَ ، فَذَاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر:٣) قَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ ».(اهـ)

وهذا الذي جاءنا عن رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبه وسلّم في تلقِيه نعيّ نفسِه من سورةِ (النّصر) تأسيسٌ لمنهج تلقّي معنَى المعنَى ، وأنّه طريقٌ قويم من طُرقِ الدّلالة على الأمور المهمّة ، فإنّ الإنباءَ بأجلِ رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم أمرٌ جلل ، وجاء الإنباء بِه بهذا الطريق ، فدلّ على عظيم مكانة هذا الطريقِ في الدَّلالة على المعانِي .

وقد فقه علماءُ أُصُول الفقه هذا فجعلوه سبيلاً من سُبل استنباط معاني التشريع من بيانِ الوحيِ قُرآنًا وسنة . فوجب على طلابِ العلم الاعتناء بِه تصوراً معرفِيًّا والاعتناءُ بِه ممارسة في الفهم والإفهام ، ولهذا كان من حكمة عبدِ القاهرِ أن عُني بِه عنايةً بالغةً في كتابه « دلائل الإعجاز » وكان من لقانتِه وحكمتِه أن جعلَ حديثَه عن أسلوبِ الكناية في كتابِ « دلائلِ الإعجاز » لا في كتاب « أسرارِ البلاغةِ » وهذا يهدي طالبَ العلم إلى منهجية عبدِ القاهرِ في تصنيفِ الأساليبِ .

وكانت سُورةُ (المسد) من أوائل ما نـزل فِـي «مكـة» وعنـد وقُـوع أمـرٍ خاصٍّ كانَ من أبي لهبٍ ، فإن هذا لم يك قطُّ عاملا من عوامل تباعد ما بيْن السُّـورتين مضمـونًا ومقصُـودًا ، ممّا يُبين لك أن المضـامين والمقاصـد لا تتوقف علاقاتُ التواصل والترابط فيما بيْنها على أوقاتِ النُّـزول ومسـاقاته المقامة ، بل الأمرُ مردّه إلى ما وراء ذلك .

ومِمَّا يحسُن تبصُّرُه أنّـه إذا ما كانت سورةُ (النّصر) بما تحمِلُه من بشرى الفتح وبسط سلطان الإسلام ، وكسرِ شوكةِ أهلِ الكفران ، ودخول الناسِ فِي دينِ اللهِ أفواجًا ، قد نزلت في خواتيم بعثتِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فإنّ ما تضمنته من البشرى لم يكن ليبقَى إلى آخر البعثة ، بل أنبأ الله سُبْحانه وتعالَى بِه نبيه ورسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَـى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم تلويحـا في مفتتح البعثةِ في سورة (المسد)، فبدأ بالبشرى تلويحًا ، وختم بها تصريحا .

وهذا من فيضِ ربوبيتـه تعـالى ، وكـريم رحيميتـه بصـفيه وخليلِـه سـيّدنا مُحمّدٍ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

* * *

علاقة سورة (المسد) بسُورة (الهمزة) :

سورة (الهمزة) سورة مكيّة تعنـى ببيـان أثـرِ الاعتـدادِ بالمـالِ والجـاهِ في التَّصدّي لدعوةِ الحقِّ ، وبِبيانِ أثرِ هذا الاعتدادِ في الاطمئنان بهذا المالِ ، وفِي الحُسبان أنَّ ذلك هو السبيلُ إلى تحقيقِ دَيمومة العِزّة والسُّلطانِ ، وكيـف أنَّ ذلك يحملُه على إيذاءِ النَّاسِ بلسانِه ويدِه همـزًا ولمـزًا ، وبِبيـانِ مـا سـيكونُ عليه مصيرُه في الآخرةِ .

وهذا كما ترَى قريبٌ جدًّا من حال أبي لهب ، بل إنّ حالَ أبـي لهـب هـو النموذجُ الذي تنطبقُ عليه سُورةُ (الهمزة) فسـورة (الهمـزةِ) وسـورة (المسـد) تتلاحظان .

* * *

علاقةُ سُورةِ (المسدِ) بِسُورةِ النِّسَاء :

سُورةُ (النّسَاء) سورةٌ مدنيّةٌ هي الرّابعةُ في أوّلِ النسقِ الترتيليّ ، بينما سُورة (المسد) المكيّة الرَّابعةُ من آخر النَّسقِ الترتيليّ .

سُورة «النساء» جاءت لتُبِينَ عن منهاج بناءِ الأُسرةِ المُسلِمةِ على دُعامتينِ عظيمتين : العدلِ والرّحمة وتُبِين أحكامِ ذلك البناءِ وضوابطه ومظاهره .

وأنت إذا ما تابعت التّبصّر في معاقد (فصُول) سورة (النساء) وآياتِها ألفيت قيمة العدل وقيمة الرّحمة حاضرةَ حضوراً ظاهراً حينًا وخفيًّا حينًا .

سورة (النساء) جاءت للبناءِ وبيان أثر المرأة في هذه البناءِ . وسورة (المسد) جاءت مُبينةً أثر المرأة في هدم الأسرة وخسرانها ، فليس ثَمَّ امرأةٌ هي الشّؤمُ على زوجِها وبيتِها كمثلِ ما كانتْ امرأةُ أبي لهبٍ ، فبيْن سُورةِ (النساء) وسورةِ (المَسَد) مقابلةٌ كليّة .

إنَّ تلاحظُ المعاني على مستوى الجملةِ والآيةِ والنَّجم والمعقدِ والسّورةِ من خصائص البيانِ القرآنيِّ ، فأنت لا تكاد تجده في بيان آخرَ على النحو العليّ الذي يتراءَى لكلّ ثاقب النّظرِ محيطِه .

* * *

موقع سُورةُ المسد على لاحبِ سِياقِ المعنَى الكليّ للقُرآن عند بعضِ أهلِ العلم :

يذهبُ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّ سُورة (المسد) تمثّل خاتمة تمامِ المعنى القُرآنيّ[1] فتمامُ الدَّعوة أن يتم النّصر والفتحُ ، ورمزُه فتحُ مكّةَ مركزِ الأرضِ

---

(١) ينظر في هذا : البرهان في تناسب سور القرآن ، لأبي جعفر بن الزبير (ت: ٧٠٨هـ) تحقيق : محمد شعباني ، ط : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ، سنة : ١٤١٠ هـ . ص٣٨٤ ، وتفسير نظامُ القرآن لعبدِ الحميد الفراهيّ ، المطبعة الحميدية بالهند . ص ٥٧٥

أمِّ القُرَى ، ففتحها رأسُ فتح كلِّ القُرى ، فإنّ هذا الـدّين داخـلٌ كـلَّ موضـعٍ دخله ليلٌ أو نهار . كما جاء بِه النبأُ الحقُّ عن رسول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

روى أحمد في مسنده بسندِه من حديثِ تَميمٍ الدَّارِيِّ رَضِي الله عنـه قَـالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسـلّم يَقُـولُ : « لَيَـبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّـهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْـلاَمَ وَذُلاًّ يُـذِلُّ اللَّـهُ بِـهِ الْكُفْرَ » .

وروى مسلم في صحيحِه من كتابِ (الإمارةِ) بسنده عَنْ جَـابِرِ بْـنِ سَـمُرَةَ رضيَ اللهُ عنه عَنِ النَّبِيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم أَنَّـهُ قَـالَ : « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِـلُ عَلَيْـهِ عِصَـابَةٌ مِـنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّـى تَقُـومَ السَّاعَةُ » .

فتمامُ الدُّين النَّصرُ والفتحُ الذي دلّت عليْه سُورةُ النّصر ، ومن قبلها صدرُ سُورة الكوثرِ ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ (الكوثر:١) ومن الكوثر (الكثير) النَّصرُ والفتحُ ، وتمامُ هذا الدين .

ومن تمامِ هذا الدين هلاكُ من يعانُده ويعاديه ، وقد دلَّت على ذلك سُورةُ (المسد) بإعلان تبابُ أبي لهب وهلاكه وخسرانه وامرأتِه ودلّت عليه من قبلِها خاتمةُ سُورةِ (الكوثَر) ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ (الكوثر:٣)

وهذا يلفتُنا إلى مآلِ صراطِ الذين أنعم الله تعـالى علـيهم ، ومَصِـير أهلِـهِ ممثلاً فِي سُورةِ النّصر والفتح ، وإلى مآلِ صراطِ المَغضوبِ عليهم وإلَى مآلِ صِراطِ الضّالين ومصير أَهلِه مُمثَّلاً فِي سورةِ (المَسدِ) .

يقُول المهايميّ : إنَّ ما جاءت به سورة « تبت» من الدلالـة علـى تحقِيـقِ الخسرانِ الكليّ المُفضِي إلى الهلاكِ الأعظمِ لأعظمِ الشّرفاء بإنكارِ هذا الـدينِ هو من أعظم مقاصِدِ القرآن . وكان قد قال في سورة (النصر) سميت سـورة النصر لأنه ظهر بِه دينُ الإسلام علَى سائر الأديان ، وهو مـن أعظـمِ مقاصِـد القرآن[1]

وهو بهذا يلفت إلى أن القرآن قد ختم بسورتين دلـت كـلّ واحـدة منهمـا على أمرٍ هو من أعظم مقاصدِ القرآن ، وكل واحدٌ مكمّلٌ للآخر .

النظم التركيبيّ (النصّيّ) لسورةِ «المَسَد» :

استعمل العلماءُ المتقدمون قبل عبد القاهر الجرجاني (ت:٤٧١هـ) كلمـة (نظم) ، يريدون بها طريقة تركيب السُّورة من آيات كما نراه عنـد البـاقلانيّ الذي ذهب إلى أنّ نظمَهُ هو ترتيبُ جمله وآياته على نحو ليس له نظير فيما عهدت العربُ من فنون البيان .

النظم عندَه إنما يتناول منهج بناء السُّـورة : ترتيـب عناصـرها مـن جمـل وآيات وفصول عَلَى نحو لم تعهده العربُ من قبلُ . وهو ما يُمكن أن أسميه «البناء التركيبيِّ» للسورة ، ومن أهل النظر من يُسميه البناء النصّي أو عمارة السورة .

ولم يريدوا بها طريقة تركيب الآية من جمل ، والجمل من كلمات والتي عمادها عند عبدِ القاهرِ توخّي معاني النحو فيما بيْن معانِي الكلمِ على وفقِ الأغراضِ والمعاني .

وكذلك نجد من جاء في زمنِ عبدِ القاهر أو بعده بِقَليلِ مَـنْ فَسّـرَ الـنّظمَ على غيرَ ما جاءَ بِه عبدُ القاهر ، نجِدُ الرَّاغبَ الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ) يَقُول:

---

(١) تبصير الرحمن لعليِّ المهايمي ٤١٦/٢ ، ٤١٧

« إنّ الإعجاز قد ذكر في القرآن» على وجهين : أحدهما : إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني : بصرف الناس عن معارضته .

فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة : فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى ، وذلك أنَّ ألفاظه ألفاظهم .... ولا يتعلق أيضاً بمعانيه .... وما هو معجز فيه من جهة المعنى ، كالإخبار بالغيب فإعجازه [أي الإخبار بالغيب] ليس برجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بالنظم أو بغيره . وسواء كان مورداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى أو بإشارة أو بعبارة . فإذا بالنظم المخصوص صار القرآنُ قرآنًا .

كما أنَّه بالنّظم المخصوص صار الشّعرُ شعراً ، أو الخطبةُ خطبةً .

فالنّظم صورةُ القرآنِ ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصُّور يختلف حكمُ الشيْءِ واسمه ، لا بعنصره ، كالخاتم والقرط والخلخال تختلف أحكامها وأسماؤها باختلاف صُورها لا بعنصرِها الذي هو الذَّهب والفضّة ، فإذا ثبتَ هذا ثبتَ أنَّ الإعجازَ المُختصَّ بالقرآن متعلقٌ بالنّظم المَخصوصِ...... تأليفُه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشرُ ، فيمكنُ أن يُزادَ فيه كحالِ الكتبِ الأُخر ... » (١)

والنّظرُ إلى السّورة بيانًا له نظمٌ في ترتيبِ مكوناتِه بدءًا ومنتهى أمرٌ قديمٌ التفت إليْه أهلُ العلمِ واعتنوا ببعضِ حقّهِ .

ومن الحَسنِ أن ننظرَ في منهج بناءِ المعنى في سورةِ « المسد » وحركة هذا المعنى الذي يحمل في مضمونِه وجهًا فتيًّا من وجوه إعجاز القرآن ،

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) : تحقيق . محمد عبد العزيز بسيوني ، كلية الآداب ـ جامعة طنطا ، الطبعة الأولى : ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ١/٤٤، ٤٥

ويحمل في الصُورةِ المعبرة عنه أيضًا وجهًا آخر من وجوه إعجاز القرآن ، فهي سورةٌ من حيثُ مضمونِها معجِزةٌ ، ومن حيثُ نظمُها معجزةٌ ، ومن حيثُ أسلوبُها معجِزةٌ فاجتمعت فيها ثلاثةُ وجوهٍ من أعظمِ وجوه إعجاز القرآن التي تتكاثر مع مرّ الزّمان ، وتنوعِ الثقافاتِ والمعارِف .

* * *

سُورةُ (المسدِ) على قلّة عددِ آياتِها وكلمِها هي معقدان : المعقدُ الثاني فيه بيان وتفصيلٌ للأول :

المعقد الأوّل هو الآيةُ الأولَى وحدها : ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ** ﴾ (المسد:١) .

والمعقد الآخر هو بقية السُّورة : ﴿ **مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ** ﴾ (المسد:٢-٥) .

لو أنّ البيان القرآنيّ جاءَ بالآية الأولى وحدَها لتَّم أصلُ المعنى . وحينئذٍ سيتولَّى المتلقِّي تصوُّرَ ما سيكونُ له من هذا التبّ : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ** ﴾ (الكوثر:٣) ولكنَّ البيان القُرآنيَّ جاء بالمعقدِ الثاني (بقية السُّورةِ) فأبان لنا ما سنعجزُ عن تصوّره ، فهو يتضمَّنُ إنباءً بما سيكونُ له في الدُّنيا مُمَثَّلا في قولِه تعالى : ﴿ **مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ** ﴾ (المسد:٢) وفيما سيكونُ له ولامرأتِه يَومَ القيامةِ ﴿ **سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ** ﴾ (المسد:٣) الآيات ، فذلك مِن أنباءِ يوم القيامة الَّتي لا علم لنا بعقُولنا بشيءٍ منها البَتّةَ ، كلّ ما نعرِفُه عنها إنّما من إنباء الوحي ولذا كان إنباءُ الوحي لنا بأحوالِها من فيضِ الرُّبوبية من عطاءاتِ الرّحمانيّة والرَّحيميّة ، والتي تستوجبُ علينا حمد الله سُبحانَهُ وتَعَالَى عليها ، فوقَ استحقاقِه علينا حمدَه والثَّناءَ عليه لِذاتِه العَليّةِ .

ومِن هذا الفيضِ أن يجمعَ إلى إنبائنا بهذا الغيبِ نعمة الالتفاتِ إليه وتدبرِه وتذكره ، والانتفاعِ بذلك في ضبط حركة حياتنا في مسيرنا إلى مصيرنا ، فتلك نعمةٌ عظمَى إلى آلاءٍ أعظم . والحمدُ لله ربِّ العالمين .

ولمَّا كان المحصُولُ المعرفيّ بما يكونُ لأبي لهبٍ الّذي يُنتجه التَّصوّرُ العقليّ مَهما بلغ هذا التصّورُ العقليُّ في فتوتِه وفحولتِه وصوابه وإحاطتِه غيرَ ملائم لحالِ أبي لهبٍ من جهةٍ ، وغيرَ ملائمٍ مِن جهةٍ أُخرَى لما يُرادُ أن يُقام في قلبِ المتلقّي حتى يتحاجزَ بكلّ ما يملك في كل حالٍ من أحوالِه عن منهج أبي لهبٍ وامرأتِه ـ لما كان كذلِك تولَّى البيانُ القُرآنِي الإنباءَ بذلك الغيب الذي لا سبيلَ لنا إلى معرِفتِه إلا بإنباءِ الغيب ، وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بنا ، وهو مِن فيضِ جمالِ الرُّبوبيّة علينا .

من هنا يتبيّنُ لك أن الآياتِ الأربعَ الأخيرةَ في السُّورةِ هي بيانٌ للآيةِ الأُولى فيها . فالسُّورةُ قائمةٌ مِن أمرين : مجملٍ ومفصِّلٍ له ، أو مِن أمرٍ واحدٍ إنْ شِئتَ : من نبإٍ مجملٍ ونبإٍ هو تفصيلِه .

* * *

وأسلوبُ الإجمالِ ثُمَّ التفصيلُ هو الأسلوبُ العُمدةُ في بيانِ الوحي قُرآنًا وسنَّة .

القرآنُ كلّه مجملٌ في سُورة الفاتحةِ ، وقد سُمّيت « أمَّ الكتابِ » ثُم فُصّل ما أجملَ فيها من معانِي الهدَى في ما تلاها من السُّور ، فما مِن معنًى مِن معانِي الهُدَى فِي أيّ سُورة من السُّورِ التي تلتها إلاَّ وأنتَ بِبصيرتِك النَّافذةِ يُمكنُك أن تلمحَ ما يتعلقُ بِه من معانِي « سورة الفاتحة » وإني لأذهب إلى إنك إن أردت أن ترجع كل آية أو نجم أو معقد في أيّ سورة من القرآن إلى شيْءٍ من سورة (أم الكتاب) لكان لك ذلك ، ولو أنا سعينا إلى إقامة مشروع علمي جادّ يقدم هذا للناس لكان عملاً جليلاً ولو أني استقبلت من

عمري ما استدبرت لجعلت ذلك من همـومي ولحملـت طـلاب العلـم إليـه حمل إرشاد وتبيين وتسديد .

مُستَوَيَاتُ تجلِّي الجَلال وَالجَمَالِ فِي مَعانِي سُورَةِ (المَسَد) :

المعنى القرآنِيُّ في أيّ سُورة من سوره بل في أيّ آيةٍ من آياتِـه قـائمٌ مِـن أمرين رئيسين لا يفترقان أبـدًا .ولا تجـدُ معنـى قُرآنيًّـا لأيِّ آيَـةٍ إلاَّ وهـذان قائمان فيه أوْ قُلْ هو قائمٌ منهما . لا يستقيمُ البَتَّةُ أن يَستنبط ناظرٌ في آية مِن آياتِ القرآنِ الكـريم ـ لا أستثني ـ إلاّ وما يستنبطُـه مِـن المعـني قـائمٌ مـن هذين ، فهما عمادُ كلّ معنًى قرآنـي ، وإلاَّ كـان هـذا غـيرَ جـديرٍ البَتَّـةَ بـأن يُوصفَ بأنّـه قُرآنيٌّ .

آيةُ قُرآنيّة أيّ مَعنًى فِي القُرآن أن يقُومَ من هذين الأمرين:

الأوّلُ : جلالُ الألوهيّة ورَهبُوتها .

والآخر : جَمالُ الرّبوبيّة . ورحمُوتها .

الأول : جلالُ الألوهيّة يقُيمُ المتلقّيَّ فِي مقـام العُبوديـة الرّاهبـة المُخبتـة القانتة الخاشية .

وهذا المقامُ قد اتّسع في كتابِ الله سُبْحَانَه وَتعَالَى الحديثُ عنـه والإغـراءُ بِه ، والثَّناءُ على السَّاعين إليه والقائمين فيه .

وهذا المقامُ جــديرٌ بالعبــد أن يقدّمـه وأن يُعليـه علـى مقـامِ الرَّجـاء في مسيرِه ؛ لأنَّـه ممَّا يُعينُه على التَّحاجزِ عن كلّ ما لا يُرضِي الله جـلّ جلالُـهُ ، وذلك التحاجزُ هو رأسُ ما يجبُ أن يُحقِّقه العبدُ .

تحقِيقُ هذا التَّحاجزُ أشـدُّ علـى الـنَّفسِ ، ولا تصـبرُ عليْـه إلا نفسٌ فتيّـة تعشقُ التحدّي . فهُو أحوجُ إلى حُسنِ الدُّربَـةِ ، وحُسـنِ المُصـابَرةِ والمُثـابرةِ والتَّواصِي بِه .

الخصِيصة الأولى تملأ القلبَ مهابة ورهبًا في مقامِه بيْن يدي الله تعالى وعطاء هذا ذو أثرٍ بالغٍ في حياة المسلم ووجود الأمَّةِ كلِّها ؛ لأنَّ حضُورَ جلالِ الألوهيّة في القلوب وظهورِه عليه يُحاجزُه عن أن ينشغلَ بغير ما يُرضِيه ، ويحاجزُ الجوارح عن أن يصدرَ عنها ما لا يُرضِيه ، فيسلمُ المرْءُ ومَن حولَه مِن كلِّ ما يُبِيرُ أوْ يُضِيرُ ، فيتحقق للأمَّة سلامُها الاجتماعيُّ ، فتتفرغُ لتعميرِ الحياة بطاعةِ الله عَزّ وعَلا .

وشجرةُ الطَّاعةِ وارِفةُ الظِّلالِ ، تتَّسعُ لكلّ الخلائقِ ، ووافرةُ الثِّمارِ تشبعُ كلَّ الخلائق .

يقُول سُبْحَانَهُ وتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

(الأعراف:٩٦)

والآخر جمالُ الرُّبوبية :

وهذا يُقيمُ العبدَ في مقامِ الرّجاءِ واليقينِ بواسعِ مَغفرتِهِ ورَحمتِه .

وإذا ما نظرنا في المعنَى القائمِ فِي سورة (المسد) ألفينا حضور الجلالِ والجمال فيه حضُورًا يتسم بأمرٍ مهمٍّ :

جلالُ الألوهيّة في معناها أظهرُ للقلبِ ، وأسرعُ وصولاً إليه ، كما لا يَخفَى عليك .

وجمالَ الرُّبوبيَّة في معناها وإن كان ذا خفاءٍ فإنّه ليتجلى للقلبِ البصيرِ :

جمالُ الرُّبوبيّة في معني هذه السورة لازمٌ من لوازمِ جلالِ الألوهية فيها ، فإن تبّ أبي لهب وهلاك محرضته هو في حقيقته بشرى لكلِّ صاحب دعوةِ حقٍّ . فمن ربوبيّة أهلِ الحقِّ والدّعاةِ إليه بلسان الحال من قبلِ لسانِ المقال أن يهلِك أعداءُ الحقِ ، وتبيدَ قوتهم ، وأن يريهم الله تعالى ذلك رأي العين .

ذلك أنَّ هذا يمنحهم فتوةً في الدّعوة والتَّمسّك بالحقّ ، فرؤية النّصر من عواملِ الثباتِ على الحقِّ ، والله عزّ وجلّ لا يدع المجاهدين بالحقِّ للحقِّ دون أن يذيقهم لذَّة ذلك ويُريهم ثمرة فعلهم في أنفسِهم أولاً ، ورأسُ ذلِك الشّعور بمعيّة الله جَلّ جلالُه ، واستشعارُ العبدِ أنّ أوّل ثمارِ الإقبالِ أنَّ الله تعالى رضيه لأن يقُوم بدعوتِه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ ، فأيُّ جمالٍ أعظمُ من أن تشعرَ بِنعمة اختيارِ اللهِ تعالى جدّه لك لتتولَّى الدَّعوة إليه ، ويشرحَ صدرَك إلَيْه . فسورةُ (المسد) حين نزلتْ وكان حالُ الدّعوة فِي سِياق المناهضةِ وقد حملت معنًى يعلُوه جلالُ الألوهِيّة وسُلطانها ، استشعرَتْ قلوبهم التي أشرقَ فيها الإيمان أن أعداءهم إلى زوالٍ ، وأنَّ الإسلامَ ماضٍ في الأرض جميعِها ، ذلك أنَّ هلاك رأس العناد ومن أغرته بِه آيةٌ بينةٌ على أنّ كلّ مَن كان على نهجِه ونهجُها له التَّبّ والخُسران .

وهذا هو عينُ البُشرَى بالنَّصرِ ، ومن ثَم جاءت هذه السُّورةُ في نسقِ التّلاوةِ بعد سُورةِ النَّصرِ والفتحِ .

ومِن البيّن الّذي لا يَخفَى على طالبِ علم بكتابِ الله عزّ وجلّ أنّ السُّورة الآتية عقبَ سُورةٍ أخرَى إنّما تضيفُ إلى معناها من جنسهِ ، وتؤكده أيضًا ، فهي تحمل أمرين :

توكيد المعنَى السّابق .

وتأسيسُ معنًى آخر يضِيفُ إليه .

فسُورةُ (المَسد) تؤكّد معنى سورةِ النّصر والفتح ، وهذا من بحر جمالِ الرُّبوبيّة ، وتؤسّسُ لِنعمة هلاكِ أهلِ العناد وأعوانهم . وهذا من بحر جلالِ الألوهيّة . وهذه الحقيقةُ باقية ما بقيتِ الحياة ، فعلَى أهل الحقِّ والدُّعاةِ إليه أن يُقيموها في قلوبهم نوراً يَهدِي وعزمًا فتيًّا يحقّقُ الغَايات وإن شَطّت .

الفصل الثّاني

تفصيلُ التَّدبُّرِ
في أسرارِ بلاغةِ السُّورةِ

إذا ما كان الذي مضَى نظرًا في كليّاتٍ إلى المنهج أقربِ فإنَّ الـذي آتيـك بعونِ اللهِ سُبحَانَهُ وتَعالَى نظرٌ في كلمات السـورةِ وفِـي جملـها وفي آياتهـا ، أُحاول مستعِينًا بالله تعالى متجردًا من الحولِ والقوة أن أتدبّرَ بعضًا ممَّا هـو مكنونُ فيها من معانِي الهدَى وأن أستنبطه وفق أصولِ الاسـتنباطِ وضـوابطِهِ ، وأنْ أُقدمَه إليك لعلّك تذوقُ شيئًا ينيرُ قلبك من أسرارِ بلاغتِها ، فيكونَ لـك منه زادٌ تصطحبُه في مسيرك إلى مرضَاةِ ربّك سُبحَانَهُ وتَعالَى .

ذلك أنَّ التدبرَ والاستنباط وإن كان أمرًا جليلاً جميلاً فإنّه ليسَ غايةً فِي نفسِه ، فليس في الإسلام اتخاذُ العلمِ متعة نفسٍ ، بل هو وسيلةٌ إلى غايةٍ أجلّ إنّها التحقّقُ بكمالِ العبودية لله ربّ العالمِين ، وهي غايةٌ ليس باليسير تحقِيقها على كمالها ، وما على العبدِ إلا أن يستعين بالله تعالى ويجاهد ويجتهد ، ويجعل أمره كلّه مبنيٌّ على قول اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة:٥)

وقد استعاذَ رســولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم مـن علـم

لا ينفع[1] ومن العلم الذي لا ينفع العلم الذي يشغل تحصيله عن العمل بِه ، فقليلٌ من علمٍ يُعملُ به إيمانا واحتسابًا خيرٌ ألفَ مرّة من وفيرٍ علم محقّق مدقّق لا يعملُ بِه[2].

وقد نعت من يعلم ولا يعمل بأنه من المغضُوب عليهِ ، ومن عمل بغير علمٍ بأنه ضالٌ ، وقد هدينا في خاتمة أمّ الكتابِ أن نستجير باللهِ تعالى من هذين : ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ (الفاتحة:٦،٧)

* * *

وممَّا حرصت على شيْءٍ منه النظرُ في ما جاء من القـراءاتِ المتـواترة في هذه السورة ، والنَّظر فيما يرد من الوقف التّام والجائز والممتنـع لمـا لـذلك من أثر في حسن فقه المعنى القرآني .

(١) روى مسلمٌ في صَحيحه بسنده : عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَـالَ لاَ أَقُـولُ لَكُـمْ إِلاَّ كَمَـا كَـانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم كَانَ يَقُولُ :
«اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا **اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ** وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِـنْ دَعْـوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا». كتاب : الذكر والدعاء والتوبة . حديث رقم (٧٠٨١)

(٢) ومن العلم الذي لا ينفع العلم الذي لا يمازجه ويخالطه حكمة ، فذلك الذي ضُـره أعظم من نفعِه ، بـل لا نفـع لـه البتـة . إن قليلاً مـن العلـم مـع كـثيرٍ مـن العقـل (الحكمة) لهو أنفع لصاحبه ولمن يسمعه .
وقد ابتلانا الله تعالى بثلة ممن ينسبون إلى أهل العلم من تكاثرت في رأسِه مقالات أهل العلم في القضايا والمسائل ، فتجد لسانه يدفق بـالقولِ المحمـول عـن الأئمـة ولكن الله تعالى قد جعَل تلك الرؤوس بلاقع من العقـلِ والحكمـة ، فجـاءت مـن أفواههم فتاوى هي الضلالُ المبين ، وأمثال أولئك فريضة على وليّ الأمر ـ إن كان غير غاشٍّ لشعبِه ـ أن يُقيم عليهم حجر السُّفهاء ..

ذلك أنَّ كُلّ قراءة متواترة في كلمة من آيةٍ تجعلُ هذه الآية آيةً جديدةً من حيثُ المعنَى أي أنّ عطاءَ هذه القراءة المتواترةِ يعادلُ عطاء قراءةٍ أخـرى في الكلمةِ نفسِها والآية نفسِها .

وهكـذا تتعـدَّدُ المعـاني بتعـدّدِ القـراءاتِ في الكلمـةِ الواحـدَة في الآيـة الواحدة ، فإذا كان في الآية عدَّة قراءات في أكثر مـن كلمـة تبـيّن لـك تنَـوّعُ المعاني للآية الواحدةِ ، وهذا من فيضِ عطاءات القُرآن الكريم .

إنّ أَدنَى تصريفٍ بيانيٍّ في أيِّ عُنصُرٍ مِن عناصِرِ الكلمة أو أدنَى تَصَـرُّفٍ في أدائهِ هو بالضّرورَةِ قَد اقتضاه معنًى لا يدلّ عليْه إلا ذلك التصرّفُ البيانيّ أو الأدائيّ ، وإلا كانَ هذا التّصرّفُ عقِيمًا مِن حيثُ المعنَى ، ومثلُ هذا يجلّ عَنهُ كتابُ ربنّا سُبحَانَهُ وتَعـالَى الـذي أعجـز العـالمينَ بِمعنـاه ومبنـاه كلمًـا وجملاً وآيًا ، ونجُومًا ومعاقدَ وسُورًا .

وهذا ممَّا يجبُ أن تتوفّـر لـه جهـودُ طـلابِ العلـم للوفـاءِ بـبعضِ حقّـه العظيم . وكلّ يحملُ ما يَجودُ بِه ربّ العالمين .

*   *   *

ومنهج الوقف في التلاوة مرتبطٌ بتأويل المعنى وتفسِيره ، ذلك أن الوقـف وسيلة من وسائل التفسِير ، فالقارئُ هو مفسّرٌ ، وبتنوع أنماط الوقـوف وفـق أصول وضوابط يتنوع فقه المعنى ، وقد عُني علماءُ القرآن بهذا البـاب عنايـة بالغة ، لا تجد كتابًا قد عُني أهله بهذا الباب فيه .

وقد هدى الـنبيّ صَـلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَـى آلِـهِ وصَـحبِه وسـلّم إلى وجـوبِ تفصيل القراءة تفصيلاً يقي من عجن المعاني ببعضِها ببعضٍ .

روى أحمد في مسنده بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيـهِ عَـنِ النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ « أَتَانِى جِبْرِيـلُ وَمِيكَائِيـلُ عَلَيْهِمَـا السَّلاَمُ

فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اقْرَأ الْقُــرْآنَ عَلَـى حَــرْفٍ وَاحِـدٍ . فَقَـالَ مِيكَـائِيـلُ اسْتَزِدْهُ . قَالَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ مَا لَمْ تُخْتَمْ آيَةُ رَحْمَـةٍ بِعَذَابٍ أَوْ آيَةُ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ ».

هذا هادٍ إلى أنه لا يستقيم أن تخلط في التلاوة آية رحمةٍ بآية عذاب ، بل يجبُ أن تقف على ختام آية الرَّحمة ، لتستفتح آية العذاب .

يقُول أبو عمر الدّاني مبينًا ما جاءَ في حديثِ رسُول الله صَلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم :

« فهذا تعليم التَّمام [أيْ الوقف التّام] من رسول الله صَلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَـى آلِهِ وصَحبِه وسلّم عن جبريل عليه السلام ، إذ ظاهره دال على أنه ينبغـي أن يقطعَ على الآيةِ الَّتي فيها ذكرُ النَّار والعقابِ ، ويفصـلَ ممّـا بعـدها إن كـان بعدَها ذكرُ الجنّة والثواب ، وكذلك يلزمُ أن يقطعَ على الآية التي فيهـا ذكـرُ الجنّة والثّوابِ ، ويفصلَ ممّا بعدها أيضاً إن كان بعدها ذكر النار والعقاب .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ (البقرة:٨١) هنا الوقف .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** ﴾ (البقرة:٨٢) ، ويقطع على ذلك ، ويختم به الآية .

ومثلـه : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ** ﴾ (غافر:٦) هنا التمام .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ** ﴾ (غافر:٧) ، ويقطع عليه ، ويجعل خاتماً للآية .

وكذلك : ﴿ **يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ** ﴾ (الإنسان:٣١) هنا الوقف .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله : ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ . . . ﴾ (الإنسان:٣١) ويقطع على ذلك . وكذلك ما أشبهه»[1].

ويحسُن أن يكونُ الوقف هنا وقفًا بيّنا يلفتُ السامع إلى أن المعنى قد تم ، وأنا ننتقلُ إلى معنى آخر . ليتهيّأَ السّامِعُ لتلقيه بما يليقُ بِه . والوقف البيّن يتحقق بالسكوت والتنفس بين الموضعين .

وهذا من قِرى القارئ للسامعِ ، فلا يسلِمه لسوء الفهم ، والاضطراب .

وقِرَى العقولِ والقلوبِ بعوامل حسنِ الفهمِ والتَّلقِّى أجلّ منزلاً ، وأكرم عطاءً مِن قِرَى البطون بشهيّ المطعوم ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ عَن ذلك غافلون .

ومن الحسنِ أن يُعنى طالبُ العلم بكتابِ الله تعالى بهذا الباب ، ولا سِيما طالب العلم ببيانِه وبلاغتِه ، فإنّ هذا الباب من أجل أبواب فقه المعنى القرآنيّ .

يقُول ابن الأنباريّ (ت:٣٢٨هـ) :

«مِن تمامِ معرفةِ القرآنِ ومعانيهِ ، وغريبهِ معرفةُ الوقفِ والابتداءِ فيه ، فينبغِي للقارِئ أن يعرفَ الوقفَ التَّامَّ ، والوقفَ الكافِي الَّذي ليسَ بتامٍّ ، والوقفَ القبيحَ الّذِي ليس بتامٍّ ولا كافٍ»[2]

* * *

---

(١) المكتفى في الوقف والابتدا لأبي عمرو الداني (المتوفى : ٤٤٤هـ) تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان الناشر : دار عمار . الطبعة : الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م . ص ٤

(٢) إيضاح في الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباريّ . (ت:٣٢٨هـ) تحقيق :محيي الدين عبد الرحمن رمضان . ط . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٩١ ، ١٠٨/١، فقرة : ١٢٨

مدخلٌ
فِي أسرارِ بلاغةِ الاستعاذةِ باللهِ مِن الشّيطانِ الرَّجِيمِ

لا ريبَ في أنَّ من جلائل الأعمال التي يصطنِعُها العبدُ المُسلمُ تلاوةَ القُرآن الكريمِ ، فَهو عملٌ جدٌّ جليلٍ أثَرُه فيمن قام له وبه إيمانًا واحتسابًا ، ومِن ثَم لا يكونُ من الشّيطان الذي أقسم أن يقُوم للإنسان عدوًّا مبينا إلا أن يُجاهدَ في منعِه منه أو إفسَاده عليْه .

قال الله تعالى : ﴿ **قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (الأعراف:١٦-١٨)

وصرّف الله تعالى البيان عن ذلك في قوله سُبْحانَه وتَعالى :

﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ** ﴾ (الحجر:٣٦-٤٤)

وفِي قولِه تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ** ﴾ (ص:٧٩-٨٣)

وفي تصريف البيان عن هذه الحقيقة دعوةٌ عظيمةٌ إلَى أنْ يقومَ هذا التّوعُّدُ الشَّيطانيّ في قلبِ المسلمِ لا يغيبُ عنه ولا يغيم البتة . بل يكون المسلِمُ منِه دائمًا على ذكرٍ ، وعلى يَقين أنَّ الشيطان لن يَكلّ ولن يَملّ من السّعي الحثيثِ النّشطِ المتنوّعِ فِي تحقِيقِ ما توعّدِ به ، فلا يكونَنّ المسلم أضعفَ عزيمة من عدوّ الله تعالى فيتخذَ الشّيطانَ عدوَّه الأوّلَ والرَّئيسَ .

وقد أكدّ اللهُ تعالَى هذا الفريضة قائلاً : ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (فاطر:٦)

وإذا ما كان الله تعالى قد بيَّن لنا عَظيمَ عَدَاوةِ الشّيطانِ لنَا فَإنّهُ في الوقتِ نفسِهِ لم يدخلْ اللهِ تعالَى في قلبِ الإنسانِ ما يزرعُ القنوطُ من دفع كيدِ الشّيطان ودحرِه ، فيُعيقَه ذلك القُنوط أو ما دونَه عن رسالتِه من الوجلِ مِن الشيطان لأنّه ليس من أدبِ المُسلمِ وقد أيقن أنّ له ربًّا ، وأنّه عبدُ ذلك الرّبّ القوي العزيزِ وعابده أن ييأسَ من روحِ الله تعالى : ﴿ **إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ** ﴾ (يوسف:٨٧) فَمن رحمةِ الله تعالى أن قال جلَّ جلالُه : ﴿ **إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ (النساء:٧٦)

بهذا أبان القرآن عن موقفِ الشَّيطانِ مِن الإنسانِ ، وعَن قيمة هذا الموقفِ ، وأثرِه في حياةِ الإنسانِ ، وحماه من أن يقُوم في قلبِه القنوط من دفعِه ، فدلَّه على أن يتخذَ منه الحذرَ في كلِّ عملٍ نافعٍ له ، فإنّ الشّيطانَ لن يهدَأ إلا إذا أفسده عليه فدعاه اللهُ تعالى إلى أن يعتصم بهِ سُبْحَانَه وتَعالَى منه ، ولاسيّما في ما هو عملٌ جليل كمثلِ تلاوةِ القرآن ، فجاء في كتابِ الله تعالى الأمرُ بالاستِعاذَة باللهِ من الشّيطانِ الرّجيم عند افتتاحِ قِراءةِ القُرآنِ : ﴿ **فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾ (النحل:٩٨)

وجاء في آياتٍ أُخـر الأمر بالاستعـاذةِ بالله تعالى عندما يعترِي المسلِمَ ما يعيقُه عن رسَالته من نزغِ شيطانٍ من شياطين الإنس : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (غافر:٥٦)

أو شياطين الجن : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٢٠٠)

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

(فصلت:٣٦)

والاستِعاذةُ «الاستجارة والتحيّز إلى الشـيء علـى وجـه الامتنـاع بـه مـن المكروه» فدلّ الأمرُ بها في ابتـداءِ قـراءةِ القُـرآن علَـى أنَّ هـذه القِـراءَةَ ممّـا يحتمل أن يتعرَّضَ القارئ لشيْءٍ من نزغِ شياطين الإنسِ بمـا يلقُونَـه صَباحَ مساء من الشّبهات المهتوتةِ ، أو لشيْءٍ من نزغِ شياطين الجن بما يُلقِيـه مـن الوساوِسِ ، فتُصرفُ النّفس عن الإقبالِ ، ويُصرِفُ القلبَ عـن التّـدبّر ، فحـثَّ الله تعالى القارئ على أن يتخذ الحيطةَ والحذرَ مِن هذه الأفاعيـلِ ، فعليْـه أن يستعيذ بالله تعالى من ذلك .

وإذا ما جَرينا على أنَّ الأصلَ في دَلالةِ الأمرِ الوجوبُ ، إلا إذا كان في سِياقِ الكلامِ المقالِيّ أو المقاميّ ما يَصرِف عن ذلك الوجوب[1] فإنّ الأمر

---

(١) الفصول في الأصول ، لأبي بكر الرازي الجصّاص الحنفـي (ت: ٣٧٠هـ) ط : ١٢، ١٤١٤هـ ، وزارة الأوقـاف الكويتية ، ٧٩/٢ وما بعـدها ، أصـول السَّرخسيّ ، دار المعرفة ـ بيروت ، ١٤/١ . المعتمد في أصول الفقـه ، لأبـي الحسين البَصْـري (ت : ٤٣٦هـ) تحقيـق : خليـل المـيس ، ط . ١ ، ١٤٠٣هـ دار الكتـب العلميـة ـ بيروت ، ٣٧/١ وما بعدها

بالاستعاذة بالله تعالى في قولِه عزّ وعلا : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٢٠٠) يفهمُ منه أنَّ الاستعاذة بالله تعالى في مفتتحِ قراءَةِ القرآن واجبةٌ ، والذي يُعلَى القولَ بوجوبِها عندي شَدِيدُ حاجةِ المسلِم إليها ، وهو مُقدمٌ على هذا العملِ الجليلِ ، فكلمَا كان العملُ جليلاً كلّما كان احتشادُ الشّيطان لمنعِهِ منه أو إفسَادِه عليه فتيًّا ، ولاسَيما مع أولئك الذين تتجاوز تلاوتهم تلاوة حروفِه إلى تدبرها وإقامة أنوارها في قلوبهم وجوارِحهم ، فإذا ثواب الحرف فوق سبع مئة حسنة . أولئك يكونُ احتشادُ الشيطان لشغلهم ، وإفسادِ الأمر عليهم جدّ شديد ، فهم أشدّ ما يكونُون افتقَارًا إلى الاستعاذة بالله تعالى من هذا الاحتشاد .

والأمر بطلبِ الاستعاذة في مفتتح القراءة دالٌّ على أنّ ما هو مقبلٌ عليه العبدُ من قراءة القرآن أمرٌ مهمٌ جدًّا ، بلْ هو أمرٌ جليلٌ ، لنْ يهدَأَ الشيطان حتَى يصرِفه عنْه أو يُفسِده عليه أو ينقِصَ من أدائه له لينقصَ ثوابَه عليْه فإن الشّيطان عليم بأنّ الله تعالى قد تكفّل متفضلاً أن منْ قرأ شيئًا من القرآن إيمانًا واحتسابًا فإن أدنى ما يكونُ له من الثواب عشر حسنات على كلّ حرفٍ كما أنبأت بذلك السّنة النبويّة .[1]

---

(١) روى الترمذي في كتاب (فضائل القرآن) من جامعه بسنده عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم :
«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».
بلْ إن هذا الحرف قد يكون الثوابُ عليْه لبعض القراء أكثر من سبعمائة ضعف لما جاء في هدي النبوة النّبأُ عَنه : روَى الشيخان في صحيحيهما : البخاريّ في كتابِ الرقاق ومسلم في كتاب (الإيمان) بِسنَدِيهما عَن ابْن عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ عَنِ النَّبِيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِيمَا يَرْوِى عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ قَالَ : ==

من هنا كان حسنًا السّعي إلى تبصّر ما يحمله نظم هذه الاستعاذة من دقائقِ معانِي الهدى ولطائفها لعلّ في هذا ما يحقّقُ لنا نصيبًا من قبولِ اللهِ تعالَى لنا ، وإقبالِه علينا ، وذلك مطلوبُ كلّ مسلمٍ .

* * *

الاستعاذة بهذه الصيغة : «أَعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجِيمِ» أو «أَعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ العليم مِن الشّيطانِ الرّجيمِ» ليست بآية ، ولكنها مستمدة من آية في كتابِ الله تعالى كما مضى .(١)

وإذا ما كانت الاستعاذة هي طلبُ العوذِ والالتجاءِ والتحصّنِ والاعتصامِ والاستعانةِ بمن يُستعاذُ به فإنَّ هذا لا يطلبُه إلا مستشعرٌ بعظيم خطرٍ قادمٍ عليْه أو يتوقع قدُومَه لما هو فيه من خيرٍ يراد استراقُه منه أو منعُه من الانتفاعِ بِه . ولا يطلبُه أيضًا إلا موقنٌ بعجزِه ، وأن من يستعيذ منه ذو قوة وغلبة هو لايملكُ بذاتِه دفعَها أو صرفَها عنه ، ولا يُطيقُ وقُوعها عليْه ، ولا يطلبه أيضًا إلا من هو موقنٌ أنَّ له من يحميه إذا ما توجّه إليه بذلك

== «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» .

(١) وهذه الجملة «أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطان الرَّجِيم» تحتمل أن تكون جملة خبرية ، يخبرُ به المرءُ عن حالِه ، أو جملة إنشائية كأنّه يقُول اللهم إني أعوذ بك .... إلخ . ومجيءُ الدعاءِ في صُورة الخبرِ يذهبُ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّه من قبيلِ المجاز المرسلِ المركَّبِ المعادل لما يُعرف بالمجاز الاستِعاريّ المركب . فهو يُقيم صُورة مركبة مقامَ صُورةٍ مركبةٍ أخرى بيْنهما علاقة غيرَ علاقةِ المشابهة ، سعيًا إلى أن ما دعا به استجيبَ له ، ووقعَ ، فأخبرَ عنه .

الطلب ، وأنـه قدم بيْن يدي ذلك ما يجعلُه أهلاً لأن يستجيبَ له من يتحصّن به ، لأنـّه استجاب لأمرِه ونهيه حين أمره بما يفعله ، وحين نهاه عما يضره ، فاستجاب ، فكان أهلا لأنْ يستجيب الله تعالى له .

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ (البقرة:١٨٦)

فمَن استجابَ لربّهِ عزّ وعلا حينَ يَأمرُهُ وينهاهُ فإنّ الله تعالَى يستجيبُ لـه حين يستجيرُ بِه ويستجديه عونَه وحفظَه وكلاءته .

ومن استجابة العبدِ لِربِه تعالى ، استجابتُه لأمره في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾ (النحل:٩٨) فإذا قالها العبدُ عندَ مفتتحِ تلاوتِه واعيا مستبصـراً ما يقُول قاصـدَه إيمانًا واحتسابًا ، فَإنّه بذلك يكون قد سعَى إلى أنْ يَجعَلَ نَفسَه أهلاً لأن يُستجابَ لها ما طلب واستجدى من العوذ والتحصين ، فيتحقّقُ له ذلك إن شاء الله تعالى .

* * *

قولُه تعالى (أعُوذُ) خبرٌ أُريدَ به الدّعاء والابتِهالِ إلى اللهِ سُبحانَه وتَعـالَى وهذا يعلِّمُنا أن نُقدم بيْن يـدي الطَّاعـة إعلانًـا إلى الله تعـالى عظـيم حَوجِنـا وعَجزِنا وعَوزنا إلى عَونِه وحِفظِه ، وأنـَّنا خلاءٌ تمامًا من كـلّ حـولٍ وقـوةٍ ، فلا يدعنا ويخلّي بيننا وبـين أنفسـنا ، ولا يُخلّـي بيْنـا وبـيْن الشّـياطين مـن حولنا : شَياطِينَ الإنس وشَياطين الجنّ .

وإذا ما كان البيانُ القرآنيُّ قائلا : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾ (النحل:٩٨) فإنَّ البيان بالفعل الماضِي (قرأت) لا يعنِي

أنه يستعاذُ به من بعدِ الفراغِ من القِراءة ، فإنّ المعنى على فإذا أردت قراءة القُرآن . مبينًا عن إرادة الفعلِ بالفعلِ نفسِه وكأنّـه قد فرغَ منه ، وفي هذا من الهدَى أنَّ الشأنَ في المسلمِ إذا ما أرادَ فعلَ خيرٍ فإنه عازمٌ على إنفاذه ومؤدّيه على الوجه الأكمل ، لا يُحاجزُه عنه محاجزٌ ، فمجرد إرادته وتحرك القلبِ به آيةٌ علَى أنه كائنٌ بحولِ الله تعالى وقوته ، وفي هذا تعليم للمسلم أن يكون فتيّ الإرادة في الخيرِ ، حديد العزيمة في صناعته ونشره .

ولا تجدُ في حياة المسلم معيقةً كمثلِ خور العزم ، فكلُّ مسلمٍ مريدٌ لفعلِ الخير ، إلا أنّ كثيرًا منهم لا يكاد يفعل .

من هنا يحثنا القرآن على أن نحيل إرادتنا الخير فعلا قائمًا مشهودًا . وإذا ما أضحى هذا سمتًا وشعارًا ومبدءًا لكل مسلم ، فإنّ هذا يقذفُ في قلوبِ أعدائهم الرَّهب . فلا تحدث أعداءَ الإسلامِ أنفُسهم أن يفكروا مجرّد تفكير في إيذاءِ مسلمٍ ما .

والحثّ على إحالةِ الإرادة فعلاً يُصرَّفُ البيانُ عنه في القرآن الكريم كي ما يتقرر في النفوسِ ويكون المسلم على ذكر منه .

يقُول سبحانه وتعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ** ﴾ (المائدة:٦)

أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة إرادةً يتحقق الفعلُ بها لا محالة .

وفي البيانِ عَن إِرادةِ القراءةِ بالقراءةِ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (النحل:٩٨) هدايةٌ إلى أنّ ما إنْ تخطر في قلبِ المسلمِ إرادةَ القراءة إلا والشيطانُ له بالمرصاد ، فهو بحاجةِ إلى أن يستعيذَ بالله تعالى منه في أول مرحلةٍ من مراحل إنتاج الخيرِ ذلك أن ّإرادة فعل الخير طاعة يُثَابُ المرءُ عليْها ، فإن صُرف رغم أنفه عن إنفاذ ما أراد كُتبَ له ثوابٌ كمثل ثوابِ الفعل .

روى البخاريّ في «الرَّقاق» من صحيحه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ عَنِ النَّبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِيمَا يَرْوِى عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :

قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ».

والشيطانُ جد عليمٍ بذلك ، لذا يترصدُ المسلم لا في فعلِه الخيرَ وإنجازِه ، بل يترصّده في خطورِ إرادةِ فعلِ الخَيْرِ على قلبِه وهمّه أن يفعلَه ، لذلك يتخذ عدّته ليفسِد عليْه إرادتَه .

كلُّ هذه المعاني من فيضِ رحيميتِه سبحانه وتعالى ، وهو عطاءٌ عظيمٌ من عطاءات جمالِ ربوبيته جلّ جلالُه ، فله الحمدُ على كلّ نعمةٍ حمدًا يُرضِيه عنَّا .

وفي البيان بالفعلِ المضارع (أعوذ) دَلالةٌ عَلَى أنّ هذا أمرٌ مستمِرٌّ مُتَجدّدٍ ، كلّما فرغَ من صُورةٍ منه أنشأ صُورةً أخرى أعلى وأقوى ، فهو في تسنمّ وترقٍ من حالٍ في الاستعانة والاعتصام إلى حالٍ أرقَى وأرفع ، وأنَّه

لا يستكينُ ولا يغترُّ ولا يغفلُ ، وفي هذا من إقامة الشَّيطانِ في مقامِ التيئيسِ من أن ينالَ من المسلمِ وإن احتفل الشّيطانُ واحتشد لإيقاعِه في الغَفلَة أو فِي الثّقةِ بنفسِه .

وتلك معانٍ جليلةٌ في مقامِ هضم النفسِ والتواضعُ بيْن يدي الله سُبحانَهُ وتَعالَى .

والباءُ في (أعوذُ بالله) للإلصاق فهو يعلن التصاقَ لجوئه بكلاءةِ الله تعالى وحمايتِه من الشيطانِ ، ويُعلن المُسلِمُ المُتعَوّذُ تحصّنه بمنعة الله جلّ جلالُه من شرّ الشيطانِ وشركه .

استفتح الجملة بالفعل ، دون تأخيرِه وتقديمِ الجارِ والمجرور ، فلم يقل: بالله أعوذ ، لأنّ في تقديمِ الفعلِ (أعوذ) استهلالاً بالإعلان بحاجتِه وافتقارِه ، وأنّه يلتجئُ إلى من يحميه ، فيستشرفُ السَّامع إلى أن يعلم من ذا الّذي يعوذ به ، فيأتي قولُه ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:٩٨) فيقع في القلبِ موقِعًا مكينًا لأنه جاء من بعدِ تشوّفٍ ، واستشرافِ نفسٍ .

وفي ذكر اسمه (السميع العليم) تذكيرٌ بأنّه يسمعُ استجارة من يستجيرُ به ، ويعلمُ صِدقَه ومقدارَ يقينِه وإخلاصِه فيما يدعو بِه ، وهو السميعُ بخفايا كلم الشيطان وهو العليم بلطيف مكرِه ، وهذا يستلزم قدرتَه ، فإن الإنباء بإحاطة علمه تعالى إنباء بطريقِ اللزوم بإحاطة قدرته ، ولذا تجد البيانَ القرآنيَّ يختم كثيراً من الآيات بأنّه بكل شيءٍ عليم ، ويختم كثيراً بقوله إنّ الله على كل شيءٍ قدير ، فهنالك تلازم بيْن الوصفين: عليم ، وقدير .

وفي هذا ما يملأ قلب العبدِ يقينًا وطمأنينة أنه إنما يستعيذ بمن هو السّميع العليم بكلّ مكايدِ الشيطانِ القديرُ على إبطالِها وعلَى الوِقايةِ منها ، والقديرِ علَى ردها في نحرِ صانعِها .

وكلمة «الشيطانُ» مشتقةٌ إمّا من الشَّطنِ وهو البعدُ المديد، سُمي بذلك لبعدِه عن طاعة الله تعالى منذ أنْ أمر بالسجودِ لأبينا آدم عليْه السّلام، فقال مستكبرًا: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ (الأعراف:١٢). ﴿ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴾ (الإسراء:٦١)

أو مشتق من الشيط أي الاحتراق، لأنّه لمّا استكبرَ طرد من رحمة الله سُبحَانه وتَعالى: ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الأعراف:١٨) ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾ (الحجر:٣٤) (ص:٧٧) (١)

---

(١) ويذهبُ أبُو الحسنِ الحَرالّيّ (ت: ٦٣٨هـ) إلى أن كلمة «الشيطان» منحوتةٌ من الأصلين: شطن، وشاط، فهو لما ابتعد عن طاعة الله تعالى شاط بغضبِه. يقول: «{الشَّيْطَانُ} هو مما أخذ من أصلين: من الشطن وهو البعد، الذي منه سمي الحبل الطويل، ومن الشيط الذي هو الإسراع في الاحتراق ... ، فهو من المعنيين مشتق، كلفظ الإنسان والملائكة».
تراثُ أبي الحسن الحرالّيّ في التفسير تحقيق الخياط، ينشر: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط، سنة ١٤١٨ هـ الطبعة الأولى. ١/١٩٦، ١٩٧م
وانظر: نظم الدرر للبقاعي طبع: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة: ١/٢٨٧
وإذا ما كان الله تعالى قد سمى هذا الجنس من ولد «إبليس» الشيطان» فإنّه سمَّى الجنس من ولد «آدم» عليْهِ الصّلاةُ والسّلام «الإنسان».
وإذا ما كانت كلمة «الشيطان» دالةً على الشطن والبعد عن رحمةِ اللهِ تعالى ودالة على الاحتراقِ بغضبِه فإنَّ كلمة «إنسان» إنْ كانت مشتقةً من (الأنسِ) فإن هذا فيه إبرازٌ لسمة في فطرةِ هذا الجنسِ، وهو أنّه يأنس بغيرِه من جنسِه، فهو كائنٌ اجتماعيّ لا تستقيم حياتُه متفردًا متوحشًا من الآخرين، وفي هذا دعوةٌ له إلى أنْ يحرصَ على تحقيق ما يقُيم هذه الخاصية: خاصية الاجتماع على الوجه الأنفع، فلا يكون منه ما يخدشُ كمال هذه النعمة، ولذا حرَّم الله تعالى الاعتداء ==

ونعت الله سُبْحَانَه وتعَالى الشيطان بنعتٍ كاشفٍ عن حالِه ، وحال فعلِه وكيدِه « فقال » الرَّجيم » أي المرجوم ، من الرَّجم ، وهو الضربِ بالحجارة ، فهو مرجوم مطرودٌ من رحمةِ اللهِ تعالى ، وفي هذا من إتراعِ قلبِ المستعيذ بالثقة ، وإفعامها بالطمأنينة ، وأنَّ هذا الشيطان هو في أصلِه مطرود من رحمةِ الله تعالى لا نصيرَ له من الله تعالى .

﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (المجادلة:١٩)

==على الآخرين وتوعدهم بقولِه سُبحَانَهُ وتَعَالَى : ﴿ **وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ** ﴾ (الهمزة:١) وجاء البيان النبوي مبينًا قوله تعالى (همزة لمزة)

روى البخاريّ في كتاب (الإيمان) وغيرِه من صحيحه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رضي الله عنهما ـ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ « **الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ** ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) من صحيحه .

فقوله تعالى : (الهمزة) هو من آذى النَّاس بلسانه وما كان من جنسه ، وقوله تعالى: (لمزة) هو من آذاهم بيده وما شاكلها والمسلم من تطهّر من هذين فلم يكن منه شيْءٌ .

وإن كانت كلمةُ (الإنسان) مشتقة من (النسيان) فهذا يشيرُ إلى سمةِ ضعفٍ في هذا الجنسِ عليْه أن يتخذ حذره منها ، وأن يعمل على اتقاءِ ضُرّها ، فلا يثق بمحفوظِه ، ولا سيّما في ما هو عظيم الشّأنِ وشديد الأثر ، فعليْه أن يتخذ من وسائل التوثيق ما يقيه ضُر هذه النقيصة ، وهذا أيضًا يلفته إلى أنّه ضعيفٌ بحاجةٍ إلى ربّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فلا يأنسُ بنفسِه ، وبذلك يبقَى على ذكر من ربّه تعالى .

ويذهب الحرالّيّ إلى أنّهُ منحوتٌ من أصلين : الأنس والنّسيان ، فهو يأنسُ بنعمة الله تعالى عليْهِ وينسى المنعم جلّ جلاله ، فلا يشكره عليها ، ولا يوظفها فيما خلقت له على النحو الذي يرضي من خلقه ورزقَه بها سُبحَانه وتعالى ..

وممّا يحسن استذكارُه أن السنّة البيانيّة للقرآن أن يأتي بكلمة « الإنسان » في سياقِ المذمة ، ولا يأتي بها في سياق محمدة ، بينما يأتي بكلمة « بني آدم » في سياقَ محمدة أو رضا أو تعليم .

وهذا من فيضِ رحمةِ الله تعالى وربوبيتِه ، ودفاعه عن الذين آمنوا ، ولذا قال بعد أن أمر بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند إرادةِ قراءةِ القرآن :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

(النحل:٩٩،١٠٠)

ولمَّا كان هذا المعنى ذا أهمية بالغة في حياةِ المسلم لم يكتفِ القُرآن بأن قال : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فيفهم ضمنا أنَّ له سُلطانًا على من عداهم وهم الذين يتولونه والذين به مؤمنون بل جاء بما يُعلم بطريق دلالة المفهوم مصرحًا به ، ليكون الإثبات والنفي في درجة واحدة من مستوى التصريح به ، فيعلم أنَّهما على درجةٍ سواء من أهمية الإنباء بهما ، وهذا منهج من مناهج الإبانة في القرآن . فقال « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ».

وجاء بِه في أسلوبِ قصر بـ(إنّما) ليمكِّن هذا المعنى في النفسِ فضل تمكن ، فيكون لها من العزيمة الفتية ما تفرُّ به من أن تكون من الذين يتولونه . وهذا هو الذي يهدف إليه الهديُ القرآنيّ .

وجاء بـ(إنّما) إشارة إلى أن هذه الحقيقة أهلٌ لأن لا يتوقفَ في قبولها ، كما هو الشّأن في البيان بـ(إنّما) ولاسيّما أنّه ممهد لها بما قبلها من النفي .

وجاء البيانُ الصريح بما كان قد فهم بطريقِ المخالفة مما سبق مفصُولاً (غير معطوف) عمّا قبله فلم يقل (وإنما سلطانه) إيذانا بأنّ معنى هذه الجملة مؤكدٌ للمعنى الجملةِ قبلها : ليس له سلطان على الذين آمنوا . وهذا التأكيد نازلٌ على مقتضِى أنَّ من طبع الإنسان أنه لا يحبُّ أن يكون لمخلوقِ عليْه سلطان . فأكدَ له هذا المعنى وقدَّمه . كل ذلك يمنح النفس الإنسانية فيضًا من التثقيف والترويضِ والتهذيب .

* * *

التأويـل البيانـي لنظم قَـولِـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١) :

كلُّ سُورةٍ من كتابِ الله تعالى خلا سُورة (براءة :التوبة) تستفتح في المصاحفِ التي بِأيدِي المُسلمين كافّةً بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١)

كان استفتاح سُورةِ «المسد» بهذه العبارة ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ (الفاتحة: ١) من فيضِ عطاءات الرُّبوبية ، ومن جليل النعم وجميلها ، إنّه استفتاح يَلفتُ إلى أَن يتبصّر القارئُ والسامعُ إلَى ما تعلّقَ بِه الجارّ والمَجرورُ ، فإذا بِه يجدُ في حالِه بيانًا لما يتعلّقُ بِه ، فيفهمُ أنّ الله سُبحانَه وتعالَى يهدِيه إلى أنّ يكونُ له من ذكرِ اسمه تعالى في ما يقُوم بِه ما يتوسّل بِه ليحقّق مراده على الوجهِ الذي يريدُ ، فإذا كان قارئًا ، فإنّ حالَه هذا يحملُه إلى أن يُقدّر ما يتعلّقُ بِه الجار والمجرور ، أقرأ بسم الله أي أقرأ مستعينًا بذكر الله ، فهو من قبيل الاستعانة بالعملِ الصالح لبلوغ ما يريد ، وتعليم العبد التوسل إلى تحقيقِ مراده بالطاعة ، ومِن عليّ الطاعات وشرِيفها ذكر اسمِ اللهِ تعالى .

هكـذا يسـتفتح البيـان القرآنـيّ معلّمًـا السـبيلَ إلى الإحسـانِ في تحقِيـقِ الأعمال . فهو دعوةٌ ربانيّة إلى أن يتخذ العبدُ كلَّ الأسباب التي تَجعلُه مُيسرًا إلى ما يعملُ ومعانًا علَى تحقِيقِ مراداتِه ، وفوقَ هذا فيه حملٌ له على الإقرار بالعجزِ عن تحقيق مراداتِه بنفسه ، والإقـرار بأنــّه لا سـبيلَ لـه إلى شـيْء إلا بعونٍ من الله تعالى الذي يتوسل إلى تحقِيقِه بذكر اسم الله تعالى .

هكذا يبدأُ البيانُ القرآني مقيمًا القارئ في مقام العبودية الذي هو أشرفُ مقامٍ ولذا كانت ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) آيةً من أم الكتابِ الذي يؤولُ إليها كلّ معنًى من معانِي الهُدى في سائر السور ، ولو أنـّا عمدنا إلى المجاهدةِ في الاجتهاد لبيان المعاني التي تؤول إلى معنى ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في سائرِ سُور القرآن لما وجدنا في العُمر والجهد متّسعًا يفِي هذا بعضَ حقّه ، فإنّ الأمر جلل ، فمرجعية المعاني في سور القرن الكريم إِلى معنى ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مرجعية وسيعة رفيعة القدر عصيّةٌ على الإحاطة .

* * *

وإذا ما كان مِن أهلِ العلم من يذهبُ إِلَى أنْ يقدّرَ ما يتعلّقُ بِه الجارّ والمجرور من جنس العمل الذي يستفتح به هذا القول ، فيَستفتح الآكلُ على تقدير: آكل باسم الله ، ويستفتح القارئ على تقدير أقرأ باسم الله ....إلخ فإنَّ منهم من يقدِّره ، أيْ أبدأُ عملِي بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ ..

وفي تقديرِه عامًّا ما يجعلُ هذه الآية كشِعار المسلم في كلِّ فعل ، فأيَّ فعل تستفتح أنتَ تقيمُ في قلبك هذه الحقِيقة ، وتجريها على لِسانك ، فيكونا : قلبُك ولسانُك رطبين بها ، فأضحت هذه الآيةُ بمثابةِ ما هو أمثالٌ عند العرب ، لا تغيّر صِيغتها بتغيّرِ سياقاتها . فهي بمنطوقها هذا تجرِي في القلبِ واللسان .

هذا العطاءُ حقّقه عدمُ تعيينِ مُتعلَّقِ «الجارّ والمجرُور» ، فكان طيّه أبركَ عطاءَ من ذكرِه ، فرُبّ غائبٍ أفعلُ من حاضرٍ ، وأبرك عطاءً . فاعتبروا يا أولي البصائر .

وفي طيّ ما يتعلّقُ به الجارُ والمجرور تكثيرٌ للمعنى في نفسِ المُتدبّرِ ، فهو من قبيل إيجازِ الحذف ، وإنّما كان كذلك ؛ لأنّ ما حُذف يُمكن أن يصرّح بِه ، فعُدلَ عن التَّصريحِ بِه فأفاد ذلكَ معنًى إضافيًّا ، فكان هذا من الإيجازِ .

أما إذا كان المحذوفُ ممَّا لا يُصرَّح بِه في نهجِ العربية ، بل هو مبنيٌّ على الطَّيّ كما في قولِك : «محمدٌ عندي» أي كائنٌ عندي ، فطيّه لا يُعد من

الإيجـازِ ، لأنَّه لَمْ يُعدل عن ذكـرِه إلى طيِّه لمقتضٍ اقتضاه . فإنَّ الحـذف لا يكون إيجازًا إلا إذا كان تركه إلى الذكر ممكنًا عربيّةً ، واقتضَى مقتضٍ أن يكونَ مطويًّا ، فَطوي .

وإن كان الحذفُ مما لا يُمكن تركه عربية ، فهذا ليس مـن الإيجـاز ، بـل تلك سنةُ الإبانةِ بالعربيّة ، ولا يُنسبُ ذلك إلى المتكلِّمِ ، بل إلى حكمةِ اللغةِ نفسِها ، وَفرقٌ غير خفيّ بين بلاغةِ الّلغةِ وبلاغةِ المتكلّم باللّغةِ .

* * *

اختلاف العلماء في موقع تقدير المتعلق :

أهل العلمِ منهم من يُقدر متعلّقَ الجـار والمجـرور هنـا مقـدمًا كمـا هـو الأصلُ في أنَّ يكون المتعلّق متقدمًا على ما يَتعلقُ بِه ، فهو أسبقُ وجودا مما يتعلّقُ بِه ، فحقّه أن يكون أسبق ذكرًا إلا إذا اقتضى مقتضٍ تأخيرَه .

ومنهم من ذهب إلى أنـّه وإن كان الأصلُ كما قالوا إلاَّ أنّ المعنى والسِّياق قد يحملُ إلى أن يُقدم الجارُ والمجرور ، لمـا في تقديمـه مـن فائـدة جليلـة تتمثل في تحصـيل معنـى التخصـيص الحصـريّ ، فيُفيـد أنـّه لا يبتـدئُ إلا باسمه ، فهو من قصر الموصُوفِ على صِفة ، قصر الابتداء علـى أنـه متلـبسٌ بذكر اسمِهِ سُبحانه وتعالى .

وهذا يلزمه أنـّه لو كان هنالك إلهٌ آخر من دونِه أو معه ، لكان جديرًا بأن يُشارِكه في أن يبتدأ باسمه ، فآل المعنى إلى أنه هُو وحده الله ، لا شريك له. وهذا هُو تجريد التوحيد ، وهو قاعدةُ كلِّ عملٍ صَالحٍ ، وهو مفتتحُ كلِّ أمـر المسلم ومُختَتَمُهُ .

وهذا يزيدُه جلاء في قلبك أن تسمعَ ما حكاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن سَحرةِ فرعون :﴿ **فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ**

ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ (الشعراء:٤٤) تبصر قولهم ﴿ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ ﴾ وهم لا يعلمون علم يقين أنّه ذو عزّة لا تقهر ، وبرغم من ذلك جعلوا أمرهم بعزّته ، فكيفَ بالمسلم ؟ أليس هو الأجدر بأنْ يَجعلَ جميعَ أمره مصحوبًا بذكر اسم ربّه سُبحانَه وتَعَالَى . لهذا قلتُ : إنّ قُوله سُبْحانَهُ وتَعَالَى ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مآل المعنى فيه هو (لا إله إلا الله) وأنّه لهذا كان جديرًا بأن يكون مفتاح كل سورةٍ ومبتدأ البيانِ فيها .

* * *

دلالة (الباء) في (بسم الله) :

« الباء » التي هي حرفُ معنى ، لا حرف مبنى في لسانِ العربيّة موضوعةٌ للدَّلالة على معنى « الإلصاق » أي أن ما تعلقت به ملصق بما دخلت عليه .

وهذا المعنى هو المعنى الرئيس ، بل إن سيبويهِ يذهبُ إلى أَنَّهُ لا يُفارقها ، وإن قضى سِياقٌ أن تدلَّ على غيرِه ، فهو مع هذا باقٍ معه لا يُفارِقُها وعبارتُه : « فما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله » أي ما جاء من دلالتها على معانٍ أُخر على سبيلِ الاتساعِ فالإلزاقُ والاختلاط أصلُ هذا المعنى الاتساعيّ . وقد يُعبر عن الإلصَاق بالمصاحبة ، وباء المصَاحبةِ عند أهل العلمِ هي التي يَصلُح موضِعها (مع) ويُغني عنها نصب الفعل على الحالية .

والمصاحبة في البسملة مصاحبة ابتداءِ الفعلِ بذكر اسم الله تعالى الدَّال على ذكر جلالِه وجمالِه وكمالِه وكل ما يليقُ به في القلبِ . وربّما كان البيان بكلمة « المصاحبة » أعلى في تأويل الباء فِي ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ .

* * *

إشراب معنى الإلصاق معاني أُخر :

وإذا كان معنى الإلصاق قائمًا في «الباء» حيثُ حلت فإنّه قد يكونُ متفردًا بدلالتها عليها ، لا يخالطه غيرُه من المعاني ، وقد يكونُ مُشربًا معنى آخر استدعاه السياق ، فكان فيها حينئذٍ بمنزل الضيف على مضيفِه (الإلصاق) فهي لا تتخلَّى قطُّ عن معنى الإلصاق في أيِّ سياقٍ قامت فيه . فحرف المعنى حين يُشربُ معنى آخر غيرَ الذي وضع له ، هو لا يتخلَّى عن المعنى الذي وضع تخليًا كاملاً ، بل يبقَى وإن أفسحَ المعنَى الأصيل (المضيّف) للمعنى الضيفِ الذي استدعاه السياق ، فيقدمه ، فيكون أسبق ورودًا على القلبِ ، وأظهر إدراكًا ، فهما معًا حاضران إلا أنَّ المُضيّف (المعنى الذي وضع بإزاء الحرف وضعًا شخصيًّا كما يقول أهل العلم) فآثار المعنَى الضيف بالظهور وسرعة إدراكه .

قلت هذا ليكون طلاب العلم على أنّ دلالة حرفِ المعني على معانٍ متعددة متنوعة ، إنما هي دَلالة ليست سواءً ، كلاًّ سيبقى المعنى الرَّئيس الذي وُضِع له هذا الحرف حاضرًا أيًّا كان الذي يقاسمه الحضور في دَلالةِ الحرفِ .

وهذا المعنى الموضوع له الحرف (المعنى الرئيس : المُضَيِف) لا محالة سَيَرعَى حق الجوار ، فكيف بحق المخالطة ، إنّه لا محالة سيتأثر بحالِ المعنى الضّيفِ لأنَّه خالطه ، فيُحسنُ صُحبته وضِيافته ورعاية لحق الجوار فكيف بالمخالطة ، فيتراحب له ، ويترابح بِه ، فيتأثر المعنى الرئيس بشيءٍ من خصائص المعنى الوارد ضَيفًا[1] .

---

(١) المتبصّر بحال تلاقِي الأصوات الصائتة (الحركات) والصّامتة (الحروف) في بنية الكلمة العربية سيجد أمرًا جديرًا بالالتفات ، يتمثلّ في حسن العلاقات بين هذه =

وبهذا يتنوع معنى (الإلصاق) في (الباء) بتنوع ما يستدعيه السياقُ من المعاني فيستضيفه الإلصاق ، وبهذا تتعدد المعاني ، ويتفنن معنى الإلصاق بتنوع السياقات والمقاصد وتفننها وهذا يبرز لك اتساع الأمر ، وأن ادعاء الإحاطة بمعانى حرفٍ واحدٍ في سياقاتِه في كتاب الله تعالى أمرٌ لا يكون . أنّه وجه من وجوه إعجازِه البلاغيّ ، فلو رغبُ واحدٌ من أولي العزم من أهلِ العلم الماجدين أن يستقرأَ استقراءً تامًّا معاني (الباء) في كتابِ الله تعالى لأقام نفسَه مقام الحرج والعجز .

=الأصَوات ، فهي تتراحبُ فتترابح ، وتجد الأصوات مؤثَرّة في ما صاحبها ، ومتأثّرةً بها ، ولهذا تَجدُ علمَ التصريف ذا الاختصاص بصناعة الكلمة العربية من أدقّ العلوم في مراعاة العلاقاتِ الصوتية بين مكونات الكلمة ، وتجد في قضايا الإعلالِ والإبدال أصولاً في هذا جد جواد ، لو تبصرها الناس ، واتخذوا منها دروسًا عملية في علاقة بعضِهم ببعض لوجدت الحياة فيما بيننا قد اتسمت بالاتساق والانسجام ، فَتنتشرُ في الحياة نعمةُ «الجمال» ذلك أنَّ عمود الجمال بين الأشياء هو انسجامها ، وكل أمّة عشِقتِ الجمال معنويه وحسيّه كانت أمّةً عزيزةً ماجدة .

إننا ـ طلاب العلم بلسان العربية عامة ، ولسانِ بيانِ الوحي خاصة ـ لمقصرون كثيرًا في الانتفاع بعلم التصريفِ بل وبالحكمة الاجتماعية في علم نحو العربية في بناء الكلمة والجملة والفقرة والمعقد والنصّ .

إن في هذا من الأسرار ما يُمكن أن يشكِّلَ نظرية معرفية سلوكية ذات فلسفة في الحياة بالغة الدّقة والإحكام والحكمةِ .

وهذا أمرٌ جديرٌ بأن تعنَى بِه بحوثُ أهل العلم وطلابِه ، ولاسِيما بحوث الدّراسات العُليا والترقيات الوظيفية لأساتذة الجامعات ، بدلاً من هذا الغثاء الممجوج المجترّ الذي يدفقُ بين رؤوسنا فتضيقُ صدورنا فوق ما هي مترعةٌ ضيقًا وكمدًا .

«الباء» هنا تُفيد مصاحبة الفعلِ ذكر اسمِ الله تعالى[1].

وذكر اسمه في حقيقة أمرِه الذي يسترضى ، والذي حرى بكلّ مسلم أن يكون عليْه الحريصَ ، وأنَ يكون له منه نصِيب وافرٌ ـ يَعنى حضُوره في القلبِ حضُورًا يتجلَى أثرُه على الجوارح ولاسِيّما اللسان ، فإذا به رطبٌ بترديدِه . فالذكر في الإسلام ليس شقشقة ألسنة . كلاًّ . اللسان ما هُو إلا مجلَى لما هو في القلبِ . وتلك حقيقةٌ يتوارثُها العقلاء :

إنَّ الكلامَ لِفِي الفُؤادِ وإنّما جعلَ اللسان علَى الفؤادِ دليلا

* * *

• القول بأنَّ (الباء) في الآية للاستعانة :

وقد يذهبُ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ (الباء) فِي ﴿ **بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ هي «باء» الاستعانة ، والمعنى أبتدأُ عملي مستعينا بذكر اسم الله ، وقال جاء في الذكر الحكيم : ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ** ﴾

(الأعراف:١٢٨)

﴿ **وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ** ﴾ (البقرة:٤٥)

---

(١) يقُول الطيبيّ : «باء المصَاحبَةِ تقتَضِي الاستدامةَ فِي قصدِ المتكلّم ، فمعناه كلُّ حرفٍ ممَّا أتكلّم بِه بعد «التسميةِ» أقدّرُ فِيه «بِسمِ اللهِ» ففيهِ تَعميمُ الفعلِ معَ «التّسميةِ» ، كما فِي قَولِه : «﴿ **تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ** ﴾ (المؤمنون:٢٠) أي تنبتُ ثَمارُها ، وفيها الدّهنُ» (فتوح الغيب : حاشِيةٌ على كشّافِ الزمخشريّ ، شرف الدين الطيبيّ (ت: ٧٤٣) جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم . أشرف على طبعه محمد عبد الرحيم سلطان العلماء ٦٨٩/١

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(البقرة:١٥٣)

وجاء في بيان النّبوة فيما رواه الترمذي في (صفة القيامة) من جامعه بسنده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم يَوْمًا فَقَالَ :

« يَا غُلَامُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ :

احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ .

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ . رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ».

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي . حديث رقم (١٥١٦) وفي صحيح مشكاة المصابيح . حديث رقم (٥٣٠٢)[١].

---

(١) من معاني الهُدَى في هذا الحديث النبوي الكريم أنّه يفيضُ رحمةً ورأفة من سيدنا مُحمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم على أمّته فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم : يرسُم لهم طريقَ العزّة والمنعةِ من كل ّمذلّة ، والمنعة من الاحتياج لأحد غير خالِقهم .
ولو أنك تبصّرت في بيانِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم رأيت حرصَه البالغ على ألا ينشغل قلبُ المسلِم بأي أمرٍ من أمور هذه الدنيا عما خلقَ له هذا القلبُ . هو حريصٌ على أن يُقيم في قلوبنا الطمأنينة ممَّا يخافُ منه الناسِ . يؤكد لنا أن العالم كلّ العالم لا يملك أن يلحق بمسلم ضُرًّا لم يكتبه الله تعالى ، فلم الوجل من أحدٍ من خلقه ؟!!! إنهم أجمعون أدوات يُحقق الله تعالى بهم مراده .

وهذا لا يصح الاستدلال به على أنّ (الباء) في هذه الآيات وفي الحديث الشّريف للـدلالة على الاستعــانة ، لأنّ هذا معلــوم ممَّا تعلقت بِه (الباء) : ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ ﴾ و«الباء» هنا للتعدية ، ولذا يُستغنى عنها ، ويبقَى معنى الاستعانة قائمًا ؟

ومن معاني الاستعانة في دلالةِ (البـاء) عليها في ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي أطلبُ عون الله تعالى بسبب طاعتِي له بذكرِهِ ، فَهُوَ ضَربٌ مِن التَّوسّل بِالعملِ الصَّالِح ، وَهُوَ مَشْرُوعٌ .

* * *

وجه الإتيانِ بكلمة اسم :

وجاء البيانُ بـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ ، ولم يقل بالله الرَّحمنِ الرّحيم ، وإنّما جَعل مدخولَ (الباء) كلمة (اسم) فلفظ (اسم) عند العرب كلمةٌ جُعلت دالَّة على ذاتٍ حسية أو معنوية شخصًا أو نوعًا .

والاسم يطلقُ ويرادُ اللفظ الدالّ على المسمّى ، وقد يُطلق ويراد المسمّى ألا ترى أنّ الله تعالى قد أمرنا أن نسبحه وأن نسبح اسمه ، وأن نسبح باسمه ، فقال : ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفتح: ٩)

﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ (الأعلى: ١)

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٥٢)

وإذا ما كان ذكـرُ اسمِـه تعـالى مُصـاحبًا استفتاح كـلَّ فعـلٍ ، ولا سِيّما شريفُ الأفعال ، كتلاوةِ القُرآن ، فإنَّ هذا الذّكرَ هُو آية ذكـر اللهِ جـلّ جلالُـه في القلبِ وَمجلاها ، وهو أمرٌ غيبيّ لا يطَّلعُ عليْه غيرُ الله سُبحَانه وتعـالى ،

فجعلَ ذِكرَ اسمِهِ عزّ وجلّ باللّسانِ آيةً علَى هذا الذّكر الغيبيّ في القلبِ والمنبئ عَنه فكلّ مسلم يجعلُ لسانَه رَطبًا مِن ذكرِ اللهِ جلّ جلالُه ، إنما ذلك من قلبٍ رطبٍ مِن ذكره سُبْحَانَه وتعالَى

* * *

وجاء نعتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنّه الرّحمن الرّحيم إبرازًا لجمالِ الربوبية مقارنًا لإبرازِ جلالِ الإلوهية في قولِه : ﴿ **بِسۡمِ ٱللَّهِ** ﴾ فقولُه هذا وإن كان جمالُ الرُّبوبيّة فيه قائمًا إلا أنَّ جلالَ الألوهية أسرع خطوراً ، وأظهر إدراكًا ، لما يدلّ عليْه تفرّده باستحقاقِ أن يُستصَحبَ العملُ بذكر اسمه أو يستعان عليْه بذكر اسمه من جلالِ الألوهية .

وفي ﴿ **ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ أيضًا يحضر جلالُ الألوهية ، لأنّه إذا ما كان هو الرَّحمنُ الذي اتسعت رحمته ، وهُو الرّحيم الذي يفيضُ بخاصّ الرّحمةِ على الخاصِّ من خلقِه ، فإنه يلزمُ مِن هذا أنه عزيزٌ لا ينازع ، وهذا مِن جلالِ الألوهية كما لا يخفَى ، وبهذا يتبدّى لك أن صدر الآية : ﴿ **بِسۡمِ ٱللَّهِ** ﴾ يجمعُ بيْن جلالِ الألوهية وجمالِ الرُّبوبيّة إلاّ أنَّ جلالَ الألوهيّة أسرعُ حضوراً للقلب ، وعجز الآية : ﴿ **ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ يجمعُ بيْن جلال الألوهيّة وجمالِ الرُّبوبيّة أيضًا إلاّ أن جمالَ الرُّبوبيّةِ أسرعُ حضوراً للقلبِ . فيقيمُ العبدُ أمرَه بين رهبٍ ورغبٍ .

في الرّهبِ ما يُحاجزُه عن أن يعصَى أو أَنْ يغفلَ .

وفي الرَّغبِ ما يُحاجزه عن أن ييأسَ أو أن ينكص ، فيبقَى العبدُ مَجذوبًا بيْن المقامين ، حتّى إذا ما قاربَ الرَّحيل كان منزلُ الرّغبِ والرَّجاء عليْهِ أغلب . فيحبّ لقاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيُحبّ الله تعالَى لِقَاءَه .

وفي تقديمِ ذِكرِ (الرّحمنِ) على (الرَّحيم) وجوه منها أنّ (الـرَّحمن) هـو ذو الرَّحمة العامّة ، وهي الّتي بها يحيا العالمون ، ولذا لم يُوصف بِـه معرّفـا بأل أو غيرَ مضافٍ أحدٌ من العـالمين ، وقـد أوردَ المُرتـدُّون عِـن الإسـلام : (رَحمان اليَمامةِ) فِي مُسيلِمة الفاجر عليْهِ مِنَ اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَستحقّ .

و(الرّحيم) هُو ذُو الرّحمـة الخاصّـةِ الّـتي تكـونُ لأهـلِ الهِدايـةِ والتَّوفيـقِ والسّدادِ ، فقدَّم العامّ على الخاصِّ .

وقد جاء وَصفُ رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم بأنّـه (رَحيمٌ) : ﴿ **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التوبة:١٢٨)

وفي تقديم العامّ على الخاصّ ترقٍّ في التودّد إلى العالمين ، فهـو يُغرينـا بالإيمانِ به ، وبالتَّزلُّفِ إليه .

هو سُبحانَهُ وَتَعَالَى ينبؤنا أنّ له رحمة عامَّةً كلّ العالمين ، سواءٌ مَن تعبّدَ ومن تبَّعّد . كلٌّ له من هذه الرَّحمةِ نصيبُه ؛ لأنّـه عبدُ الله تعالى قَدَرًا ، فلعلَّـه يتبصَّرُ في هذا ، فيكونُ عبدَه حَسَبًا ومَسلَكًا وتعبُّدًا ، فتكونُ له هـذه الرَّحمـةُ الخاصّة فوقَ التي كانت له قبل .

إنّـه فيضٌ من التودّد الإلهي لعبادِه أن يقبلوا على عبادتِه التي لايعود نفعها إلا عليْهم : ﴿ **فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ** ﴾ (الأنعام:١٠٤) ﴿ **فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ** ﴾ (يونس:١٠٨) ﴿ **وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ** ﴾ (فاطر:١٨) ﴿ **مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ** ﴾ (فصلت:٤٦)

واسمُه (الرَّحيم) لم يأت مفردًا عن اسم آخر من أسماءِ الله الحسنى ، بـل كان دائمًا مسبوقًا باسمٍ ، وهو الأغلب ، أو سابقًا ، وهو الأقـل ، بينمـا اسمـه

(الرحمن) فقد جاء مفردا غير مقرون باسمٍ آخر من أسماءِ الله الحسنى ، ولا سيّما في سُورة (مريم)

* * *

وجه عدمِ مشابهة سُورةِ (المسد) سورة (براءة) في عدمِ ذكر ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١) :

جاءت هذه الآية في فاتِحة سورةِ (المسد) على الرغمِ مَن أن السَّورةَ كلها رهبٌ ونبأ عن سوء عُقبَى أبي لهبٍ وزوجه ، وظاهر الأمر أنّ هذا لا يناسِبه الاستفتاح بذكر الرَّحمة العامَّة والخاصّة ، فكان حرِى أن تعاملَ مُعاملة سورة (البراءة: التَّوبة)

أمَّا ترك ذكر آية ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١) في فاتِحةِ سُورةِ (براءة) فذلك توقيفٌ ، والقول بأنّ الحكمة في ذلك أنّها سُورة العذاب ، وأنها السورة المنقّرة عن ما في قلوبِ المنافقين ، والسّورة المبعثِرة ، والمثيرة والبَحوث والحافرة ....إلخ إنما هو اجتهادٌ لا يكشف وجه ترك ذكر ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ذلك أنّا نرى سوراً أخر فيها هذه المعاني وقد استفتحت بـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من هذا سورة (الماعون) وسورة (الكافرون) وهذه السورة : سورة (المسد).

وأنت إذا ما نظرت ألفيت أنّ السُّورَ الَّتي قِيل إنها سورُ عذاب وتفتيش وبعثرةِ ما هو مكنون في صدور المنافقين والكافِرينِ .... ونحو ذلك إنَّ ذلك هو في حقِيقته رحمة بمن هم أولى بأن يُعتبر حالهم في القصد : حال أهل الحق ، فما جاءت به سورة : (براءة ، والمنافقون ، والماعون ، والكافرون والمسد) إنّما هو رحمة بأهلِ الحقّ ، لأنّ إنزال الفضيحة والعذاب وما شاكل

ذلك بأهل الباطل إنّما هو مِنْ فيض الرحمة بأهلِ الحق ، ومن لم يلحظ ذلك في مثل هذا يخسرُ كثيرًا من فقه معانِي الهدَى في كتابِ الله تعالى

* * *

وأهل العلم على أنّ قولَه تعالى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تعليم للأمة أن تفعلَ ذلك في مفتتحِ أمرها ، كما علّم رسُولَه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في أوّلِ ما نزل على قلبِه وسمعِه من الوحي فهو بمثابة أمرٍ غيرِ مباشرٍ بالأمر المباشر : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١)

وهذا لا يجعلُها خبريةً لفظًا إنشائيةً معنى ، لأنّ دلالتها على الأمر دلالة لزوميّة ، لم يُسق البيان لذلِك سوقًا أصليًّا ، بل هذا مستفادٌ من سياقِ الكلام ، وأساليبُ الأمر والنَّهي غير المباشر في الكتابِ والسّنة جد عدِيدة ، ومتنوعة ، بل هي أكثر وردًا فيهما من الأمر والنهي بالصيغ الموضوعةِ لذلك ، ومن ذلك وهو كثير الثناءُ على الفعلِ أو على فاعلِه ، ففيه التَّرغيبُ في فعلِه ، ومن ذلك الذّم للفعل أو فاعله ففيه الترهيبُ منه ، ومن ثَم تتسع صُور الأمر والنّهي غير المباشر في القرآن الكريم .

* * *

معانِي الهدى في قولِه تعالى : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١)

استهلت السورةُ بيانها بهذه الآيـة ذات الجملتين : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾ و﴿ وَتَبَّ ﴾ وهما جملتان فعليتان ، وفعل « التبّ » في العربية دالٌّ على الخسرانِ المفضِي إلى الهلاك ، فمن فسّر التباب بالهلاك ، فقد فسّره بلازم المعنَى[1] .

---

(١) عُنيَ برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) بتفصيل دلالات الكلم التي جاءت من مادة (ت. ب.ب) على التقلبات الصوتية لأصُولِها ، مبينًا أنَّ هذه الكلم تدور على أصل واحد . يقُول :
« ومادة (تب) و (بتّ) ... تدور على القطع المؤدِّي في أغلب أحوالِه إلى الهلاك ، لأنَّ مِن انقطع إلى الأسباب معرضاً عن مسببها كان في أعظم تباب ، وربما كان القطع باستجماع الأسباب ، فحصل العوز بالمقاصد والمحابّ .... »
(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ـ لبرهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) ط . سنة ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي ـ ٥٦٩/٨، ٥٧١)
يُشير البقاعي إلى أنّ كل كلمة كانت أصولها (فاؤها وعينها ولامها) الباء والتاء هي كلمة يقُوم معناها على أصل القطع المفضِي إلى هلكةٍ بالغةٍ . وهو قد عرضِ للكلم على التفصيل مبينا عن معانيها وحضُور معنى القطعِ المفضِي إلى الهلاك .
والبقاعي ذو اعتناءٍ بالغٍ بهذا في تفسيره ، فقد يستغرقُ تتبعُه كلماتِ مادَّةٍ واحدةٍ العديدَ مِن الصَّفحاتِ ، ممَّا يظنُّ منه القارئُ العَجِلُ أنّ هذا إقحامٌ يحسنُ أن يخلوَ منه كتابٌ لتفسير كلام الله تعالى جدُّه .
وهذا في ظاهره اعتراضٌ وجيهٌ إلاَّ أنّ من علمَ ما نُصبَ له تفسيرُ (نظم الدّرر) رأى أنّه اعتراض غيرُ قويم . ذلك أنَّ ما عُنِيَ به البقاعيُّ من النَّظر في التقلّبات الصَّوتيّة لبعضِ المواد اللّغويّة الّتي وردت لبَعضِ كلِمها في القرآن له علاقة رئيسةٌ بنظريّة التَّناسب القرآنيّ التي أقامَ عليها تفسِيرَه (نَظمِ الدّرر) وهي أنَّ معاني الكلم والجمل والآيات والنّجوم والمعاقد تدُورُ على أصل واحدٍ هُو مركزُ المعنى فِي السّورةِ كلِّها ، وهو ما يُسميه (المقصُودَ الأعظم). ==

وفي صوتِ الفعل من القوة ما يشِي بذلِك لمن ألقَى السّمع ، فإذا ما سمع المرء في أوَّل الأمر هذا الفعل : (تبّ) وكان ممن يعرفِ لما تسمعُ الأذن حقّه ، ألقَى كلَّ شيءٍ من عنايتِه المعنوية والحسيّة لينظر ما الذي كان له ذلك الفعلُ الرَّهَب ، وشأنُ كلِّ عاقلٍ إذا ما كُوفِح بِمرهِبٍ انزعج واستُفِزَّ ، مخافة أن يكونَ له منه ذَنوب ، وهو من هُو ، ألم يكن النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إذا سمع صوت الرَّعد جَأرَ إلى الله سُبحانَه وتَعَالَى[1] مخافة أَن ينزلَ به أو بأمتِه ما يكرَه ، ونحنُ الآن إن سمعنا صَوت

==وهو هنا يبحثُ المعنى المركزيّ الحاضرَ في مدلول كلِّ كلمةٍ اشتركت مع كلمٍ أُخر في أصلِها وإن اختلف ترتيب الأصول ، وهذا أمرٌ جدٌّ لطيفٍ وطريفٍ وهو الجديرُ بأن يُعتنى بدرسِه وتحقِيقه وتحريره ، إذ هو من الدِّراسات الَّتي ما يزالُ كثيرٌ مِن جوانبِها لم يُستزرَع بعدُ .

(١) روى الترمذي في كتاب (الدعواتِ : باب ما يقُول إذا سمعَ الرعد) من جامعِه بسنده عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ : « اللَّهُمَّ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ ». (حديث : ٣٧٨٣) قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

ورواه أحمد فِي مسندِه من حديثِ عبدِ اللهِ بن عُمر رضِيَ الله عنهما . والحاكم في المستدرك وصححه والنسائي في السنن الكبرى والطبراني في المعجمِ الكبير ،وابن أبي شيبة في مسندِهِ والبيهقي في « السنن الكبرى » وفي « الدعوات الكبير » والطبري في تفسيره الآية رقم (١٢-١٣) من سورة الرعد . حديث رقم (٢٠٢٥٩) ٣٨٨/١٦ : تحقيق أحمد شاكر

وصححه الذهبي ، وحسنه العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي . وغيره . واختلاف أهل العلم في تضعيفه حملني إلى الاستئناسِ به . ولولا ذلك لرغبت عن ذكره هنا .

الرعدِ فرحنا لما نؤمّلُه من سقُوط الغيثِ ، وكأنَّا أمنَّا مكرَ الله سبحانَه وتعالى . ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٩٩)

وثَمَّ فرقٌ بيّنٌ بيْن (التَّبّ) والخُسران : التّبُّ هو الاستمرارُ في الخُسران ، فهو خُسرانٌ لا يتناهَى : ينتقلُ صاحبُه من خُسرانٍ إلى خُسران أشدّ وأعتَى ، ولذا لا يستقيم بلاغةَ أن يُقال : خَسرت يدا أبي لهب وخسر ، لأنّ هذا لا يلائِمُ حال أبي لهبٍ فاستعمال فعل (التّبّ) هنا مطابِقٌ حال أبي لهبٍ في مسِيره ومصِيرِه .

ومن معاني الهُدى في الاستفتاح بهذا الفعلِ أنّه يحملُ إلى القلبِ المعافَى من داءِ الغفلةِ فيضًا من التَّرقبِ للعرفان بمن وقعَ عليْه ذلك الفعل ، فإذا ما أنبأَ بِه (يدا أَبِي لهب) أدرك أنّ الذي كان من أبي لهبٍ أمرٌ جدٌّ عظيم ، جعله مُستحقًّا لأن يقعَ عليْه هذا الفعل الرّهب ، ويستحقّ أن يُنبأَ الله سبْحانه وتعالى بِه في كتابه ، فيُتلَى إلى يوم القيامة ، ففي هذا الاستهلال تسجيلٌ لفداحةِ ما كانَ منه تَرهيبًا لكلِّ سامعٍ أن يَكونَ له من هذا المتَحدَّثِ عَنه نصيبٌ بل أدنى مقاربةٍ .

وجمهرةُ أهل العلمِ على أنّ قولَه تعالَى ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾ إن يكن خبرًا في لفظِه ، فهو دعاءٌ عليْه .

والقول بأنّ قوله تعالى : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ ﴾ دعاء والداعِي هو الله سُبحانَه وتَعَالَى والمدعو هو جلّ جلاله ، فيه نظر كيف يستقيم أن يَكون الدّاعِي هو المدعو؟ وما المقصِد من ذلك ؟

أليس الأعلى والأقربُ إدراكًا أن هذا إنباءٌ بأنّ ذلك له من اللهُ تعالى . وأنّه متحقّقٌ لا محالة ؟

للعلماء في مثلِ هذا مسالك أجملُ أهمها :

من تلك أنَّ هذا مسلكٌ من مسالك التَّعجيب من أحوال من يُتحدّث عنه وأنّه قام مقامًا يستحقُّ به الهلاك والخسران الكامل المبين ، فأعجبوا من ضَلالِه وحمقِه الذي بلغ به هذا المبلغ .

فهو في صُورة الدّعاء الذي هو إنشَاء طلبيّ ، ولكنَّه في حقِيقته تعجيبٌ أي حملُ السَّامعِ على أن يتعجّب من حالِه ، والتّعجيبُ إنشاءٌ غيرُ طلبيّ .

وفي هذا مِن التَّفظيع لحاله تنفيراً من مقاربته ، فمن كان هذا حالُه ، فأنَّى لعاقلٍ أن يُقاربهم ، بَله أن يخادنَهم . إنَّ هذا له الضّلالُ المبين والمُبير .

ومن مَسَالِكِهِمْ فِيهِ أنَّ هذا تعليم المؤمِنِ أن يدعو عليه بهذا ، وهذا يفهم منه أنّ من دعا على أحد بمثلِ هذا ، فهو شديد النّفرة من حالِه وسياقِه ومَناخِهِ ، وهو إلى مباغضة منهاجه جدُّ عظيم ، فكأنَّه يحملهم إلى متاركةِ مناهجه ومجانبته ، وأن يُعلنُوا بالدُّعاءِ عليه بِهذا كيْما تَشتدَّ المفاصَلة بينهم ، والدّعاء على الظَّلوم مِن أسلحةِ المؤمنِ الّتي لا تخيبُ ومن كره أو منع الدعاء على الظالمين فكأنه رضي بالظلم أو كأنه يعترف بأنه ظالم فكره أو منع من الدعاء عليه ..

* * *

ومنْ أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى أنّ قَولَه تعالى ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ** ﴾ ليست بدعاءٍ عليْهِ ، بل هِيَ نبأٌ مِن اللهِ عظيمٌ ، هيَ إخبارٌ بغيب مُستقبل سَيقعُ لا محالةً ، فهو وجه من وجوه إعجازِ القُرآن .[1] وهو مسبوقٌ إلى هذا ،

---

(١) عبدُ الحميد الفراهيّ في تفسِيره (تفسِير نظام القُرآن) يجهرُ بأنّ السُورة كلها إنما جاءت نبأ بغيبٍ وليس فيها دعاءٌ ولا ذمٌّ لأبي لهب .

وسأعملُ إنْ شَاء الله من بعد هذا على تحرير نصّ تفسِيره سورة (المسد) كاملاً وعلى تعليقِ حواشيه ونقد مسائلِه خدمةً لطلاب العلمِ بكتابِ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى =

فمِمَّا ذهب السُّهيليّ إليْهِ في «الرّوض الأُنُفِ» أن قوله تعالى ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ** ﴾ «لَيْسَ مِنْ بَابِ ﴿ **قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ** ﴾ ولَكِنّه خَبَرٌ مَحْضٌ بِأَنّ قَدْ خَسِرَ أَهْلَهُ وَمَالَه»[1]

وهو عندِي الأعلَى ، فالسُّورة إنباء بغيب في مفتتح الدَّعوة : إنباءٌ بهلاك رأس الكفرانِ ، مثل ما كانت سُورةُ (النَّصرِ) إنباءٌ بدولةِ الإسلامِ وسطوتِه علَى هذه الأرضِ ، وأن مَعقل الشّرك سيَخضع لِدولةِ الإسلامِ ، فتعودُ مكة من أمّ قرى الكفران إلى أمّ قرى الإيمان[2] .

=وعونًا لهم على تثويرِ مقالاتِ أهل العلم واتخاذ موقفٍ علميّ موضُوعيّ ممّا جاءَ عنهم وكنت قد بدأت في هذا حتى منتصف تفسير السورة ثم توقفت ، ولا أدري لم صُرفتُ عن استكماله ، والله المستعان على ما يرضيه .

(١) الروض الأنف للسهيلي (ت: ٥٨١هـ) (م.س) ١٧٦/٣

(٢) لعلماء أصول الدين حديثُ وسيع في شأن أن سورة «تبتْ يدا أبي لهبٍ» إنباءٌ بغيبٍ محقّقِ الوقوع ، وكانَ حديثهم هذا في وجه الإلحاد الذي كان يمارسُه ثُلّةُ من المعتزلة وغيرِهم من الفرقِ الضالة ، وعلى رأسِهم عمرو بن عبيد :

قالَ أبو بكر الفِريابيّ (ت٣٠١هـ) «سَمِعْتُ أَبَا حَفْصٍ عَمْرَو بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ : سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ مُعَاذٍ ، وَذَكَرَ قِصَّةَ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ : إِنْ كَانَ ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ** ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، فَمَا عَلَى أَبِي لَهَبٍ مِنْ لَوْمٍ .

قَالَ أَبُو حَفْصٍ : فَذَكَرْتُهُ لِوَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ ، فَقَالَ : مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ يُسْتَتَابُ ، فَإِنْ تَابَ ، وَإِلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ». (كتاب القدر : للفريابيّ : أبو بكر جعفر بن محمد ابن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي ، تحقيق : عبد الله بن حمد المنصور ، ط . ١ ، ١٤١٨هـ ، أضواء السلف. وانظر: السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل (ت : ٢٩٠هـ) تحقيق محمد بن سعيد القحطاني ، ط . ١ ، ١٤٠٦هـ نشر : دار ابن القيم ـ الدمام ، ٤٣٧/٢

والإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري (ت : ٣٢٤هـ) تحقيق : فوقية حسين محمود ، ط .١ ، ١٣٩٧هـ ، دار الأنصار ـ القاهرة . ص١٩٤، ١٩٥) ==

وقولُه تعالى : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ ناظرٌ إلى قَولِه تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ (الكوثر:٣) وإِلى قولِه عزّ وجلّ في سورة (الكافرون) : ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ ﴾

ومثلما كانت سُورة (النصر) ناظرة إلى قولِه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ وإلى قولِه تعالى في سورة (الكافرون) : ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

وأهلُ العلم يلتفتون إلى توجيه ذكر «اليدين» في قولِه سُبْحانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ ولهم في هذا كلامٌ وسيعٌ .[1]

==والاعتصام ، للشاطبي (ت : ٧٩٠هـ) تحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، ط . ١ ، ١٤١٢هـ ، نشر : دار ابن عفان ، السعودية ، ٢٩٧/١

فالقول بأنه نبأ عن غيبٍ مستقبل دالٌّ على وجهٍ من الإعجاز نظر إليه العقلُ المشبوبُ بنيران الفتنة والضلالة على أنه من الظلمِ المبين ، وأنّ أبا لهب ليس عليْه من بأسٍ في كفره .

كذلك يلبسُ أحفاد أبي لهب ، وينشرون إضلالهم . وما علموا أنَّ الله سُبحانَه وتَعَالَى قد هدَى أبا لهب وغيره النَّجدين ومنحه نعمة الاختيار ، فاختار سبيل الضلالة ، فما أرغمه الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى على غير ما اختار ، وأبو لهبٍ وأحفاده حين اختاروا الضلالة سبيلاً لم يكونوا يعلمون أنّ الله تعالى عالمٌ بأنهم سيختارون ذلك حتى يقُولوا إن علمه حملنا على ذلك ، فعلم الله تعالى بما سيكون ليس هو الحامل على الفعل .

(١) ينظر من شاء : تفسير الطبري . تحقيق شاكر . نشر : مؤسسة الرسالة . ط .١ ، عام ١٤٢٠ هـ . ٦٧٥/٢٤ وتفسير الرازي : نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . الطبعة : الثالثة ـ ١٤٢٠ هـ . ٣٤٩/٣٢ والكشاف للزمحشريّ ، ومعه فتوح الغيب عليْهِ للطيبيّ ٦٢٣/١٦ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ) .تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد . نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت . ط . ١ ، ١٤٢٢ هـ . ٥٣٤/٥ ونظم الدرر في تناسب الآيات والسّور للبقاعي (ت : ٨٨٥هـ) نشر : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة . ٣٢٩/٢٢

والأعلَى عندي أنّ قَوله ﴿ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ يهدِي إلى هلاك القوة التِي بها يُعاند الحقّ ، والّتي يَحسِب أنـّها مُخلدةٌ ذكرَه ، فإذا هو هُمزة بلسانِه كما كان يفعل برسُولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ولمزةٌ بيدِه كما كان يفعل مع المستضعفين من أتباع سيّدنا محمّد صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، فويل لكلّ هُمزةٍ لُمزة مِن أحفادِه في كلّ عصرٍ ومِصرٍ .

إنَّ أنكى تهديدٍ ونكالٍ للطغاةِ الفجرةِ ما كان فيه سلبُهم قوتَهم وجاهَهم وسلطانَهم وما كان مُحققًا ذلهّم وهوانَهم على مَرأى وَمَسمَع مِمَّن كانوا مُتسَلّطين عليْهم ، فإذا ما سَمعَ الطاغِيةُ التَّهديدَ أو الإنباءَ بِمحقِ ذلك كلّه وصيرورتِه هباءً خلاءً مُستذلاًّ من كل ما حولَه كان ذلك أعتى وأنكى ما يلقَى من الجزاء فِي دُنياه .

إنَّ أوّل ما يقصِم ظهرَ الفاجرِ هلاك سُلطانِه قبلَ هلاك نفسِه ، فذلك يُقيمه في عذابٍ أليمٍ مهينٍ مقِيمٍ ، مما يجعلُه يتمنّى هلاك نفسِه ، ويجعلُه مَطلوبه ، وهو من أعتَى ما يبلغُه الطاغِيةُ من هوانٍ . فكلُّ متترِّسٍ بما كسبت يداه من مالٍ وجاهٍ وولد وعتادٍ حين يهدّد بهلاكِه يكونُ له من ذلك عذابٌ مقيمٌ مهين.

هكذا استحالُ حالُ أبي لهبٍ على رؤوسِ الأشهاد ، ممَّا جعل نفوسَ المُستضعفين من حولِه متطلعةً إلى لَحظاتِ تساقطِ الهوانِ والذّلّ عليْه .

وفي هذا أيضًا إنباءٌ لكلّ من كان على منهاجِه أنَّ ما أنت عليْه من جاهٍ وسلطةٍ ، ومال إنّما هو هالكٌ لا محالة ، وأنّ ذلك لن يُغنِي عنك شيئًا .

كذلك يُعلِّمنا إنباءُ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى بقوله ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ منهجية استفتاح إذلالِ عُتاةِ الفَجرة ، فإيراد كلمةِ ﴿ يَدَآ ﴾ هنا ليس من قبيل الإقحام ، ولو لم تكن لكان الأمرُ غيرَ مُتَّسق مَعَ مَنهَجِيّةِ إنزال الهوانِ بالطّاغيَةِ الَّذي جمعَ مالاً وعدّده يحسبُ أنّ مالَه أخلَدَه .

إنّها فاتحةٌ دامِغةٌ ، ولاسِيما أنّ أبا لهبٍ العليمُ بأنّ ما ينبِئُ به ابن أخيه سيدنا رسول اللهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إنّما هو حقٌّ وصدقٌ ، فما جرّبوا عليْه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم كذبًا قطّ .

* * *

وفي الإعرابِ بهذه الكُنية ﴿ **أَبِي لَهَبٍ** ﴾ معادلة للإعرابِ عن امرأتِه بقَولِه تعالى ﴿ **حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ** ﴾ على ما سيأتيك إنْ شَاءَ اللهُ تعالَى ، فهو من تلاحظِ النُّعوت وتعادلها ، وهو ضربٌ من الاتساقِ والانسجامِ الذي هو جوهر الجمالِ الحسيّ والمعنويّ .

الإعرابُ عنه بهذه الكنية (أبو لهب) لا يَحملُ تكريمًا كما هو الغالبُ على التَّكنية في سُنة التَّخاطب عند العربِ[1] .

---

(١) يذهبُ عبدُ الحميدِ الفِراهي إلى أن الإعلان عنه بـ« أبي لهب» ليس فيه شتمٌ ولا ذمّ، بل هو إلى التكريم أقرب ، وهذا من عبدِ الحميد غيرُ حميد .

حمله عليْه رغبتُه في تقوية ما ذهب إليْه مِنْ أنَّ قولَ الله سُبْحانَهُ وَتَعالَى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ ليس دُعاءً على أبي لهبٍ ، وليس شتمًا له ، وهذا في نفسِه مِن الفراهيّ مقبول ، ويُمكنه أن يقرّره بغير الذهابِ إلى أن التكنية بـ« أبي لهب» إلى التكريمِ أقرب .

وهذا يُبين لك أنّ الرّغبةَ في مناصرة رأي أو رؤية ـ وإن كنتَ في قامة الفراهي العلمية الشّامخةِ ـ قد تدفعُك إلى القول بما لا يُقبلُ .

إنَّ الرَّغبة في هذه المناصَرةِ لعائقٌ من عوائق التفكير العلمي إلى استبصار الحقيقة ، فاحذرها ، ولن تستطيع أن تُفكّر تفكيرًا مستقِيما إلاَّ إذا أمكنك العرفانُ بعوائقِهِ ، وبأثرها ، فاجتهد فِي تحقيقِ هذا اجتهادك في العلمِ بما يُضير صِحة جسدك ، فصِحَّةُ قلبِك (عقلِك) وصوابه أنفعُ لك من صِحة جسدك ، فإنّما أنت بأصغرَيْك : قَلبِك ولِسانك

والقولُ بأنَّها كُنيةٌ تلوّح إلى ما كانَ له من وضاءةِ وجهٍ ـ وإن صَحّ أنّه كان وضيءَ الوجهِ ذا غديرتين ـ إنّما هو قولٌ لا يَستقيم مع سياقِ السورةِ من جهةٍ ، ومن ثانية متى كان القرآن يلتفتُ إلى اعتبار الحُسن الجسدي . ومن ثَالِثَةٍ أليس الأليق بتلك الوضاءة الحسية أن يُكنى بما يحملُ إلى القلب إشراقَ النور صافيًا من الإحساسِ بالهلكة مثل أبي الضِياء أو أبي النُّور أو أبي الحُسْنِ مثلما كُنّيت زوجُه أمَّ جميل ؟!!!! [1]

الإعرابُ عنهُ بهذه الكُنية إشارةٌ إلى حالِه فيهم من جهةٍ وإلى حالِه هو في مصِيرِه الأخروي من أخرَى .

أمَّا حالُه فيهم ، فهو مصدرُ اللهبِ الَّذي هو رمزُ الإبادةِ ، فكلُّ من قاربِه كان له من هذا اللهبِ نصيبٌ .

وأمَّا حالُه في مصِيرِه الأخروي ، فإنّه سيَصلَى نارًا ذات لهبٍ .

* * *

وجاء قوله تعالى ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ** ﴾ جملة فعلية مجردة من التوكيد ، فلم يقل: لقد تبت يدا أبي لهب ، لفتًا إلى أنّ هذا النبأَ هُو الصِّدقُ والحقُّ واليقينُ فلا يفتقرُ إلى أن يؤكّدَ ، ففيه ما يُغنيه عن توكِيدِه من خارجه ، ألا ترَى أنَّ الإعراب عنه بـ(أبي لهب) من أعظم المؤكداتِ استحقاقَه هذا التبّ ، فإذا ما كان أبا لهب ، فما الذي يكون مصيرُه في منطق العقل الفطري؟ أليس عُقبَى اللهبِ الهلاكَ والفناءَ ، فكيف بأبي لهب ؟!!!!

---

(١) روى مسلم في كتاب (البرّ والصّلة) مِن صَحِيحَه بسَنَدِه عنَ أبي هُرَيْرَةَ قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»

يسلك أهـلُ البيـان العالِي إلى ترك التـوكيد بمؤكد خارجيّ إعرابًا عَـن أَنَّ ما هُم مُخبرون بِه مِن الوثاقةِ واليقينِ مَا لا يحتـاجُ هُـو إلى توكـيدٍ ، وما لا يحتاجُ المُخبَرُ به ذو العقل الفطريِّ إلى أن يؤكَّد له ، لأنَّ منطقَ العقلِ الفِطريّ ، لا يُمكن أن يتوقفَ فِي قبولِه فضلاً عن أن يتشكك ، فضلاً عـن أن يرُدّه ، وهذا نهجٌ من أنهاج البيان القرآني في ترك التوكيد .

وسنّة البيان القُرآنِيِّ فِي تجريد النَّبإ مِن التّوكيد ، ممّا يحسنُ أن تتفرغَ له دراسةٌ علميّة تكشفُ عن مقتضِيات تـرك التّوكيـد . وتكشـفُ عَـن أثـرِ هـذا التّرك في تقريرِ المعنى وفي توطينِه ، وفِي تفعِيله في النفسِ المسـتقبلةِ هـذا النبأ . فكثير من طلابِ العلـم شُغلوا بدراسـة التوكيـد : مقتضـياته وطرقـه ، وبدراسَةِ ما يترتّب عليه من تقريرٍ للمعاني في القلوب ، ولم يلتفت كثيرٌ إلى أن يُعطي تجريد النبأِ من التوكيد هذه العناية على الرَّغم من أن عبد القـاهر لفَتنا لفتًا قويًّا إلى أهمية دراسة بلاغـة الصـمت أو السّكوت ، وأنـّها بلاغـة تنبعثُ في غالبِ الأمر من أمرٍ في المعنَى الـذي يـتكلمُ فِيـه وهـذا بـابٌ مـن العلم كأنـّه البكرُ أو كأنـّه الأرضُ الموات ، وَمَن أَحيَى أرضًـا ميْتـةً فِهـيَ لَـهُ كما هدت السنة النبوية [١] ، ....

وإحياء مواتِ العلم إن لم يكن مقدمًا على إحياء مواتِ الأرضِ فهو كمثلِه فضلاً وأثرًا فِي الأمّةِ ، وحرى بنا أن نعلّم أنفسَنا وأبناءنا منهاج إحياء مـواتِ العلمِ النافع وأصـولَه وضَـوابِطَه وأدواتِـه . فكـم مـن أرضٍ اسـتزرعها الأئمـة

---

(١) روى أبو داود في كتاب (الخراج) من سننه بسنده : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّـى حَـدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ حَـدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَالَ « مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ ». (صححه الألبانيّ : سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٥٦٨).

فأنبتت وأورقت وأزهرت ثُمَّ أثمرت ، وهي اليوم قفرٌ بوارٌ من رغبتنا عنها وانشغالنا برجيع الأَعاجم وبرميم سَماديرهم .

* * *

جاءَنا ابنُ كثير وحدَه بإسْكان «الهاء» من ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ فكانَ وحدَه المتشرفَ بتحمّلِ هذه القراءةِ وجاءنا سائرُ العشرةِ بفتح (الهاءِ) منها .[1]

---

(١) تفرّدُ القارئ من العشرة الثّقاتِ بتحَمّل قراءة هو من معالم التشرّفِ بالتفرّد ، وكأنّه في هذا أُمّةٌ وحدَه ، ولو أنّه ما تحمّل لخسرتِ الأمة أيّما خسارةٍ ، فجنّده الله سُبحَانَهُ وتَعالَى للقيام بِهذا الشرف العظيم وهذا ممَّا يذكر فِي مناقِبِه .
ومثلُه تفرّدُ الصّحابيّ برواية حديثٍ عن النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم هو من مناقِبِه ، ولا يظنّ مبتدئ في طلبِ العلم أَنّ هذا ممَّا يُضعِف الحديث روايةً ، كلاَّ ، لا يقُولها من ذاق شيئًا من العلم ، لأنَّ ضعفَ بعضِ الأحاديثِ سندًا لا يأتِي قطُّ مِن قِبلِ الصَّحابيّ ، وإنّما يأتِي مِمَّن جاء بعده من التابعين ومن بعدهم فحملَ عنه .
كذلك تفرّد القارئ بحملِ وجهٍ لا يجعل ما اجتمع عليه الآخرون أقوى وأعلى ، فهذا لا يقال ، فليس في القرآن من آياتِه ما هو أعلى وما هو عالٍ بل كلّه طبقة واحدة . وكذلك القراءات العشر المتواترة هي كلها طبقةٌ واحدة ، ومن فاضل بيْن ما تحمّله القراء العشرة الثّقات ، فقد دفع بنفسِه فيما لا يحمدُ عليْه أبدًا ..
وما تحمّله ابن كثيرٍ من قراءةِ إسكان ثاني الثلاثي المتحرك بالفتح ، وتحريك الساكن بالفتح كما في نَهر ، ونهر ، وشعْر وشَعر ، هو في العربيّة سائغٌ شائعٌ ، وهو هنا في (لهب) قرآن يُتلى ممّا جعل لهذه السُّنة الأدائيّة عند العربِ تمكنًا .
فكل ما جاءت به القراءاتُ القرآنيّةُ ممّا كانت تعرفُ العرب ، جعلَ لهذه اللهجاتِ في هذا الموضع الذي اصطفاه القرآن الكرِيمِ مزيَّةً تفوقُ بها غيرَها ممَّا لم تصطفِ القراءات منها
وفي تسكين عيْن الكلمة في (لهب) لفتُ الانتباه ، بالانتقالِ من فتح إلى سُكون ، فالمغايرةُ تكسرُ درجة الإلفِ فتلفت الانتباه .

وأجمعَ حملةُ القراءات على فتح (الهاء) من ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وما خالف في هذا أحدٌ منهم ، وذلك آيةٌ بيّنةٌ على أنَّ القراءاتِ ما هي بإمكاناتٍ لغويّةٍ نحويّةٍ لهجيّة ، فما جاز لغةً جاز قراءةً . كلاَّ ، فلو كان ، ما اختلفوا في ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ وأجمعوا في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ . إنْ هي إلا التَّلقّي والتَّحملُ ، وأمانةُ النقلِ ، فجزاهمُ الله سُبحَانَهُ وتَعالَى عنا خيرَ الجزاءِ .

ولستُ هنا إلى ما ذهب إليه بعضُ أهلِ النّظر من أنّ تركهم التسكينَ في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ من أنـّها فاصلة حفاظًا على التوافقِ الصّوتي ، فهذا يُشعر بِأنّ القرّاء رضِيَ اللهُ عنهم لهم الخِيرةُ في أن يفعلوا ، وأن يتركوا . كلاّ .

هم حَمَلوا ما بلغَهم عن النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم بالسَّند الوثيق ، فلو أنـّه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم قرأ بإِسكان (الهاء) في ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ لحملُوا ذلك عَنه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، فالأمرُ كلُّه مرجعُه أمانة في التَّحمّل ، وفِي التجرّدِ مِن الرَّغبة في أن يكونَ لهم غيرُ ذلك ، وهو شرفٌ لا يُدانَيه أيّ عملٍ آخر ، فاحرصْ على مثلِه تكن الدّنيا تحت قدميك ، وتكن الآخرة في يديك إن شاءَ الله تعالى ..

* * *

من معـانـي الهُدى في عطف قـوله (تعالى ﴿ وَتَبَّ ﴾ على الجملةِ الأولَى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أنّ الجملة الثّانية ﴿ وَتَبَّ ﴾ تؤسّسُ لمعنى جديدٍ ، هو هلاكُه من بعدِ هلاك يَدَيْه . فعطفها عليْها اقتضاه ما فِيها من معنًى جديد ، وهذا العطف لفتَ إلى هذه المغايرة ، ولولا القَصدُ إلى لفتِ البصَائرِ إلى هذا المعنى الجدِيدِ المحمولِ في الجملةِ الثّانية لما جاءت هذه (الواو) التي تفيد عند النُّحاة معنى المشاركة في الإنباء ومن ثَم هي مثلُها لا محلّ لها من الإعرابِ .

وهي عندِ البلاغيين تفيدُ أيضًا الَّلفتَ إِلَى أنّ ثَمّ جديدًا في ما بعدها وليست وظيفته توكيدُ ما قبلها فحسبُ ، بل يُضيف إلى ذلك جديدًا هو الأعلى في القصديّة ، ولما كان هو الأعلى في القصديّة استعلى الإتيان بـ(الواو) ولولا هذا لكان الأعلى تركُ (الواو) فصلا بين المؤكَّد والمؤكِّد المعروفِ عند البلاغِيين بِكمال الاتصال أو الاتصال إلى غاية كما يقُول عبدُ القاهر .

المُهمّ أنَّ ما بعد (الواو) حينَ يكونُ مقاربًا ما قبلها في المعنَى ، فإنّ (الواو) تلفتُنا إلى أنّ القصد ليس إلى توكيدِ ما تقاربا فيه ، بل إلى ما تحمله من عطاءٍ جديدٍ ، ولمّا كانت بعضُ النفوسُ لا تحتاج إلى أن يكرّر لها ما سبق أن جاءَ بِه النّبأ فربَّما لا يمنحه عناية عليّةً ، فإنّ (الواو) تأتي لتنبِّه إلى أنّ فيما هو آتٍ بعدَها جديدًا ، فحرى أن يُمنحَ هذا المعنَى الجديدِ حقّه مِن العناية .

هذا الذي قلتُه يَحسُن أن تصحبه في تدبرك المواقِع التي تعطف فيها الجمل المتقارِبة في المعنى ، فيظنّ أنّها هِيَ هِيَ أو ما جاءت إلا مؤكدةً مضمونَ ما قبلها ، ولكنّ العقلَ البلاغيّ يلتفتُ بهذه الأداةِ (الواو) القائِمة بين الجملتينِ المتقاربتين إلى ما في الجملةِ الآتيةِ بعدها من معنًى جديدٍ يُضافُ عطاؤه إلى عطاء الجملةِ التي قبلَها[1] .

---

(١) الوقفُ على آخر الآية الأولى ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ وقفٌ تامٌّ مِنْ أن المعنى قد تمّ . وما بعده تفسيرٌ له . والوقف على المجمل والابتداء بما يفسره وقفٌ تام .

ويجوز أن تقف على آخر قوله تعالى : ﴿ أَبِي لَهَبٖ ﴾ وتستأنف التلاوة بقوله تعالى : ﴿ وَتَبَّ ﴾ وإنْ كانَ هذا غيرَ معهودٍ ، فإنه جائزٌ عربيّةً ، ذلك أنَّه من قبيل عطف جملةِ على جملة ، ويجوز في العربيّةِ أن تقفَ على آخر الجملةِ المعطوفِ ==

الجملتان اللتان استهلت بهما هذه السُّورةُ جملتان خبريتان تنبآن بنبإٍ حقٍّ يقرِّر وجهًا من وجوه إعجاز القُرآن : يُعرفُ بوجه الإنباء بالغيبِ المستقبل ، وهو في القُرآن كثير . وهذا الوجهُ مِن الوجوه المُحكمَة لإعجاز القرآن الّتي لا تحتمل تأويلاً ؛ لأنَّها واقعٌ مشهودٌ ، بينما الإعجاز البَلاغيّ يُمكن أن يُنازعَ فيه ، بل نازعَ فيه علماءٌ مسلمون يؤمنون بأنّ القرآن كلمة الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى التي أنزلها على عبدِه ونبيِّهِ ورَسُولِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم[1]

وهذه الآية هي أصلُ المعنَى في السُّورةِ كلّها ، وما هو آتٍ من بعدها إنْ هو إلا تفصيلُ ما أجملته هذه الآية ، ولو لم ينزل غيرها من آياتِ السّورةِ معها لَكَفتْ إجمالاً ، وكان بِمَلك أولو البصائرِ أن يدركوا بعضًا مِن مَعالمِ التَّفصيلِ بالتبصّرِ والتدبرِ ، فإنَّ هذين : التّبصّرَ والتدبّرَ يُثوِّران المكنونَ فِي مُجملات البيان .

فالسُّورةُ قائمة على أسلوبِ الإجمالِ والتفصِيل . وهذا الأسلوبُ قريبُ العطاءِ وفيرُه حين يُرادُ له أن يتحقّقَ له قُربُ الإدراكِ من جهةٍ ثُم تمكنه من أخرَى .

== عليها إذا تم المعنى ، وتبدأ بالجملةِ المعطوفةِ ، ألا ترَى أنّه يجوزُ أن تقولَ : « جاء محمدٌ »وتقف ، ثم تستأنف « وذهب خالد »

(١) من هؤلاء العلماء ابن سِنانِ الخفاجيّ في كتابِه : سِرّ الفصَاحة ، نفى إعجاز القرآن بلاغة ، وقرر أنّ الإعجاز في صَرفِ الله سُبْحانَهُ وَتَعَالَى العباد عن أن يأتُوا بِمثلِه ، ولو خلّى بَيْنهم وبين ما كانُوا عليْه قبل نزوله من القدرة على البيان لجاءوا بِمثله .

أمَّا قُربُ الإدراكِ ، فإنَّ المجملَ أقربُ إدراكًا من المُفصَّل ، فإنّ في التّفصيلِ ما قد لا يُطِيقه كثيرٌ . فالمجملات أسرعُ إدراكا ، وأيسر حملاً[1]

وأمَّا تمكنُه فإنّ في التفصيل تقريرًا للمعنى ، وهو بِمثابة إعادة ما أجمل ، ممَّا يجعلُ وروُدَه علَى القلبِ مَكرورًا ، فيقرّرُ فيه .

* * *

من معاني الهدى في نسق التفصِيل على نسق الإجمالِ :

إذا ما كان الإنباءُ إجمالاً عن هلاك ما هو رمز قوتِه ومنعته جاء متقدّما يردفُه الإنباءُ بهلكتِه ، فإن التفصِيل كذلك :

جاء قوله تعالى : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) مفصلا قولَه تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ ومفسّرَه .

وجاء قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) مفصّلاً قوله تعالى ﴿ وَتَبَّ ﴾ ومفسّره .

لمَّا كانت يداه هما أداةُ كسبِه غالبًا ، فاليدُّ رمزُ القدرة على الامتلاكِ ، والفعلِ ، أنبأ القرآن أنّ ما أنتجته يداه من المال ومن الكسبِ لا يُغنِي عَنه شيئًا ، والعربُ لا تتَّخذُ المالَ لِذاتِه ، ولا تتّخذُ الولد لذاتِه ، وإن كان في اقتناءِ كلٍّ لذاته ما يشرحُ غيرَ قليلٍ من النّفوس ، لأنّهما زينةُ الحياةِ الدّنيا ، فهذان : المالُ والولدُ (كسبُه) في حَقّ أبي لهب وحفدتِه فِي كلّ عصرٍ ومصرٍ لن يُغنيا عَنهم شيئًا .

---

(١) من هنا خفّ على الناشئة في باكر طلب العلم حفظ المتون العلميّة ، وأنت لا تكادُ تجد علمًا من علوم الإسلام وعلوم لغته إلا وفيه متن نثري أو منظوم يُحملُ صِغار طلابِ العلم إلى حفظه ، وقد كانت هذه سنة تعليمية عالية منذ عقُودٍ مضتْ في معاهدِ الأزهرِ . وهو أمرٌ لو عاد شيءٌ منه لكان له ما يحقق شيئًا من الخير المفقود

قولُه : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) على وجهِ الإنباءِ الغيبيّ آيةٌ بيّنةٌ قَاهــرةٌ على أنّ القــرآنَ من عنـدِ الله سُبْحــانَهُ وَتَعَــالَى فإنّه لا يجــرؤُ ذو أثارةٍ من عقـلٍ أن يقطعَ على الغيبِ بمثلٍ هذا من عندِ نفسِـه أو مِن عندِ مَن هُو مثله بشراً أو مخلوقًا . فأنـّى له أن يأمنَ تخلّفُ ما أخبرَ بِه . إنّها ستكونُ حينئذٍ معرَّةَ الدّهر .

لكنّ النّبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم أعلنها فيهم ، وملأ بها أسماعَهم وقلوبهم ، فما جَرأَ أحدٌ أن يقولَ له : إنّ هذا لَنْ يكـونَ ، بـل كـان أبُو لَهَبٍ يتوجَّسُ خيفةً مِن كلّ ما هدّدَه بِهِ ابنُ أخِيه سَيّدنا مُحمّـدٌ صَـلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم . ومن ثَمَّ حرَصَ علَى ألاَّ يخرجَ يومَ بدرٍ مَـعَ مَن خرجَ علَى عظيمِ عدائِه للنبيّ صَلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَـى آلـِهِ وصَـحبِه وسـلّم وعلى شَديدِ حقــدِهِ علَى الإسلامِ وأهلِهِ ، واستأجر من يخـرجُ مكانَه وتلـك لا يفعلُها إلا ساقطُ الهمّةِ ..

لو أنّ أبا لهبٍ ومن حولَه تبصّروا حالَ النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وهو يعلنها فيهم :﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ (المسد:١-٣) وهم يَعلمون أنّـه ما جرَت قَطُّ على لِسانهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم كلمةٌ كَذِبٌ ، وما أنبأ قطُّ بما لم يقع عَيْنَ ما أنبأ ، وما خانَهم ، صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم فِي أمرٍ قطُّ ، لو أنـّهم فقهوا لعلموا أنَّ من ورائه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم من يملأ قلبه يقينًا بما ينبئُ بِه .

هذه الآياتُ وحدها كفيلة بألاّ تدعَ أحدًا من قومِه صَـلّى اللهُ عليْـهِ وَعلَـى آلِهِ وصَحبِه وسلّم غيرَ مؤمنٍ بِه منافحٍ عنه إن استَمعت قلوبُهم ما أعلنَه فـيهم من هذه الآيات .

ولكن الله سُبحانَه وتَعَالَى قد أنبأ عن حالِهم وحالِ حفدة منهجهم من بعدهم إلى قيامِ الساعة : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩) [١].

---

(١) هلْ لك إِلَى أن تتبصّرَ في قولِه تَعَالَى جَدُّهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ وقد استحضرهم باسم الإشارة (أولئك) بيْن عينيك لتقوم مقام المشاهدة لما هو قائمٌ فيهم ، وخارجٌ منهم ، فتدرك أنّه وإن تعجبك أجسامهم فإنّما هم كالأنعام ، وهنا يقيمُك تتبصّر ما يلتقون فيه مع تلك الأنعامِ ، فتدهش ، وأنت في دهشك هذا من تكاثر معالم الاتفاق بينهم وبين الأنعام ، يأتيك الإضرابُ بـ(بل) فإذا هو يصرِفك إلى ما هو فوق الذي أدهشك قبلُ ، يقُولها لك : ﴿ هُمۡ أَضَلُّ ﴾ فيحملُك بهذا التَّصاعدِ في كشفِ الواقِع إلى أن تحسنَ التَّبصُّرَ في حالِهم أكثر ، لترى أنّ الأنعامَ لو عرض عليها ما عُرِضَ عليهم ، ولو أنَّها مُنحت ما منحُوا من نِعمةِ وسائلِ الإدراك ، لما كان من واحدٍ من تلك الأنعام ما كان مِن واحد من أولئك الذين تعجبُك أجسامهم ، وتملأ مناظرهم الأعين .
هكذا يتصاعد بك البيان القرآنيُّ حتى يترع قلبك بحقيقة أولئك ، ثُمَّ يقُولُها لك لتعلم مبعث ما هم عليْه . إنَّهم أضل من الأنعام إنّهم هم مقياسِ الغفلة التي لا يدانيهم فِيها مخلوق ، أولئك هم الغافلون .
كذلك يصُوغ البيان القُرآني الجملة صياغة تقطع بتفرُّدهم في بابِ الغفلةِ . إنهم الأنموذج الأكمل للغفلة ، وفي هذا من التَّنفير البالغ من الاستسلام للغفلة ، ومن الحفزُ الفتيّ للتيقظ ، وللحضُور العقليّ والنفسيّ والقلبي إزاء كلِّ ما يَجرِي من حولك .
بهذه الجملة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ يقضي البيان القرآني في أمر الغفلة ، وخطرها ، وأن صَاحبها بمقدار ما يحوز منها بمقدار ما يكون دخُولُه في ==

صيغ قوله تعالى : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) على نهج المضيّ ، فـ(ما) في قولِه تعالى : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ ﴾ (المسد:٢) نافية ما بعدها[1]

==عـــالمِ الأنعـــام . **إنَّ مفتـــاحَ الولـــوج فِـــي هـــذا العـــالم هـــو الغفلـــة .**
إنّه الإبلاغ في التنفير منها ، وفِي التحفيز إلى التيقّظ ، وإلى أخذ الحذر والنفرة من كلّ ما يُقارب من عالم الأنعام .

وجاء قولُه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ غيرَ معطوفٍ بـ(الواو) على قَولِه تَعَالَى جَدُّهُ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾ لفتًا إلى أمرين :

الأمرُ الأول : إلى ما بيْن مضمون كلٍّ من تلاقٍ ، وهو أمرٌ يحسُن تقريرُه في النفوس ، وفي إبراز معنى التلاقي بترك العطفِ عونٌ على ذلك ، لأنَّ ترك العطف يلفت إلى مقصديّة التقرير والتأكيد والتأطيد ، فيعلم السَّامع أهمية تقريرِ ذلك في نفسِه ، فيحرصُ عليْه .

وهذا من سنة البيان القُرآنيّ في لفت الانتباه إلى ما يريدُ الانتباه له لأهميته لِلسَّامع .

والأمرُ الآخرُ : هو لفت الانتباه إلى ما في قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ من إشارة إلى مبعثِ ما هم فيه من مشابهةٍ للأنعام بل ما هم فيه مِن تفوقٍ عليها إنّما هو الغفلة .

(١) يذهبُ بعضُ أهلِ العلم إلى أنّه يُمكنُ أن تكون (ما) استفهامية ، بمعنى أي غناء أغناه عنه ماله وما كسبه ؟ فهو استفهام إنكاريّ يفيدُ النفي ، والاستفهام الإنكاري مآلُه كما ترى إلى الخبر ، ولكن جاء البيان عن النفي بالاستفهام الإنكاري ، حملا للسَّامع إلى أن يتبصّر ، وأن يراجع ويبحث ويفتّش في الأمر ليجد جوابًا عن ذلك الاستفهام ، فلا ينتهي بِه طولُ بحثِه وتفتيشه إلا إلى أن يعلن أنّه لم يغن عنه مالُه ولا ما كسب شيئًا ، فيكون هذا إقرارًا اعترافيًّا ، وهو أقوى سبل الإثبات فيسدّ طريق الاعتراضِ والتوقف في التسليم بهذه الحقِيقةِ ..

ولا يستقيم أن تكون (ما) في قوله (ماله) موصولةً صلتها (له) على معنى : ما أغنى عنه الذي له ، لأنّ القراءة بالرفع (مالُه) فهو فاعل (أغنَى) ولم تأتِ قراءة بجعل (ما) فاعلا للفعل (أغنى) فيكون (اللام) في (له) مفتوحًا . ==

بينما صيغ قولُه تعالى : ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ (المسد:٣) على نهجِ الاستقبــال ، وكان يُمكــن أن يُقال فِي غيرِ القــرآن : لن يُغنِي عنه مالُــه وما كسب ، فيكون على نهج ما بعده ، أو يجعل ما بعده على نهجه ، فيقع التناظر والتشاكلُ فِي الصيغة ، لكِنّ البيانَ القُرآني عدل فجعل ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) على نهج المضي لأنّ هذا متحقّقٌ في الدنيا ، وواقعٌ بيْن أعينِ الملأ ، فلا سبيلَ إلى إنكارِه ، فلم يغن عنه مالُه شيئًا ، ولم ينفعه كسبه البتّة ، ومن كَسبِه ولده[1] ومن يقرَأ أحداث موتِه ، وما فعل أولادُهُ به ، وكيف أنهم تحاشوا الاقترابَ منه أو العمل على دفنه ، لعلمَ أنّ ولده لم يغن عنه حتى في مواراتِه الترابَ بعدَ موتِه ، وهو أدنى ما يصنع

==ولو جاءت قراءة بهذا لكان قوله (ما كَسَبَ) داخلا فيه ، فـإن مـا كسـب هـو لـه أيضًا ، ويكونُ مِن عطفِ الخاصّ على العام . فإنَّ الذي له يَعُـمُّ مـا كَسَـبَهُ بنفسِـه ، وما لم يكسِبْهُ بِنفسِه مِن ميراثٍ وغيرِه ، ولكنَّ ما كَسَبَ لا يكونُ إلاَّ لِما عَمِل على كسبه ، وكان له في تحصِيلِهِ يدٌ .

وهذا يبين لكَ أنّـه ليس كلّ ما أمكنَ عربيَّةً جازتُ القراءةُ بِـه ؛ لأنَّ القـراءةَ توقيـفٌ لا دخلَ لأحدٍ من العالمين فيها . بيْنما تأويلُ القراءة وتوجيهها اجتهادٌ وفـق أصـول وضوابطَ متعيّنةٍ حرصت على تقرير أنَّ القراءات القرآنية توقيف مـن الـوحي دفعًـا لما يذهب إليه بعض المحدثين إلى أنه يصح أن نقـرأ القـرآن باللـهجات العربيـة ، فيقرأ كل عربي بلهجته وهذا خطأ فاحش .

(١) ذهب بعضُ أهل العلــم إلى أنّ المعنى ما أغنى عنه ماله وما كسب في الآخـرة ، فلا يقيه ماله وولده نار جهنم . وهذا عندي غيرُ عليّ ، لأن غيرَه من العصاة والطغاة والفجرةِ والكفرة لن يغني عنهم مالهم وما كسبوا يوم القيامة . ﴿ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾(الممتحنــة:٣) ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ:٣٧)

الولدُ لأبيه[1] . ومِن فضل الله تعالى أن بعضًا من ولدِ أبي لهبٍ أسلموا ، وحسن إسلامهم[2] وهم بذلك يتعبدون ربهم بقراءة هذه السُّورة ، فانظر كيفَ أنّ الإسلام يحيل ولاء المرءِ من قبيلته وأسرته ورحمِه إلى أن يكون ولاؤه لله تعالى وحده ، فهؤلاء ولد أبي لهب يتعبدون بما جاء في شأن أبيهم ، وهذا أبو سفيان وولده رضي الله عنهما يتعبدون بذلك ، وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يتعبد بقراءة سورة (القلم) .

إنَّ هذا لآيةٌ جليّةُ الدّلالةِ ، فتيّةُ البرهانِ علَى أنَّ الإسلامَ هو الحقّ ، فكيفَ يتعبّدُ رجلٌ بما جاء في حقِّ أبويهِ من تقريرِ أنهما في النارِ خالدين أبدًا إلاَّ إذا كان على يقين قطعيّ أنّ هذا هو الحقُّ المبين ، كذلك يفعل الإسلام في الرجالِ ، يجعلُ ولاءهم لدينهم ، وليس لغيرِه قبيلة أو وطنا أو حزبًا

(١) ينظر في هذا : الروض الأنف ١٢١/٥، ١٢٢

(٢) ينظر في هذا : سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت : ٩٤٢هـ) تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، ط . ١ ، سنة ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١١/١٤٠، ١٤١ .
وما جاء بِه بعضُ أهل العلم أن قوله ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد:٣) خبر عن ﴿ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد:٢) وأن المعنى ما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ، أي ولده سيصلى ... هو وجه بعيدٌ جدًّا . رأيته في كتاب : معاني القرآن وإعرابه ، تأليف أبي إسحاق الزجاج (ت :٣١١هـ) تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، ط .١، ١٤٠٨هـ ، عالم الكتب ـ بيروت . ٣٧٥/٥ يقُول : « (سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، أي : وولده سيصلى ناراً ذات لهب . ويقرأ : (سَيُصْلَى نَارًا).
وأخشى أن يكون هذا من غفلات المحقق أو ناسخ المخطوطة . ذلك أنّ الزجاج قال بعد ذلك « ويقرأ (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) ــ بالنصب ـ وامرأته رفع من وجهين : أحدهما العطف على ما في « سَيُصْلَى » ، المعنى سيصلى هو وامرأته ويكون (حَمَّالَةُ الْحَطَبِ) نعتا لها ». فالقولُ بأنّ (سيصلى) خبرٌ عن (ما كسب) بعيد فإن أكثر ولد أبي لهب قد دخل في الإسلام . وحسن إسلامه .

أو قومية أو نحو ذلك فشعارُهم دائمًا «الإسلامُ أولاً وآخرًا» و«الإسلام كلُّ شيْءٍ» ، ومن رفع غيرَ ذلك ، فقد قاربَ أن يقعَ فيما لا تُحمدُ عقباه عقيدةً ، فليحذر الَّذين آمنوا أن تتخطفهم أهواؤهم وشهواتهم وشبهاتهم وجهالاتهم وضلالاتهم ؟ (١)

* * *

ويأتي قولُه تعالى ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾ (المسد:٣) تفصيلاً لقولِه (وتبّ) من جهةٍ ، ومن أُخرى يُمكنُ أن تجعلَه كالنتيجة لقولِه ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد:٢) ذلك أنّه إذا كان عدم الإغناء هذا هو مصيرُه في الدنيا ، فإن مصيره في الآخرة أعتى .

ولك أن تجعلَهُ استئنافَا بيانِيًّا عن الجملة التي قبله ، كأنَّه قيل: هذا جزاؤه في الدنيا ، فما جزاؤه في الآخرة ؟ فقيل : ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴾

والوجهان يمثلان طريقًا من طرق الوصلِ بين المعاني وصلا جوانيًّا ، يُستغنى فيه من قوته عن عامل لفظيّ يحقق التواصل . وهذا ما يسميه البلاغيون الفصل لكمال الاتصالِ وشبهه ، فيجعلون ترك العطف بالواو للاستغناء عن عامل وصل خارجي فصلا لفظيًّا ووصلا معنويًّا .

---

(١) الوقفُ على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ وقف تام ،وهو من السنة لأنه وقف على رأس الآية .

أمّا الوقفُ على ﴿ مَالُهُۥ ﴾ واستئناف التِّلاوة ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ فغير حسن إنْ جعلنا قوله تعالى ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ معطوفًا على فاعل ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ ﴾ فليس حسن أن تقول : «جاء مُحمّدٌ» . وتقف ، ثم تبدأ : «وخالدٌ» إلا على تقدير وخالدٌ كذلك .

وعلى هذا التأويل يمكن أن تقف على ﴿ مَالُهُۥ ﴾ ثُم تستأنف ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ على أنَّ ﴿ مَا ﴾ في ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ مبتدأٌ محذوفُ الخبر ، تقديرُه «ومَا كسبَ كذلك» فيكون من عطف جملة اسميّةٍ مُثبتةٍ علَى جُملةٍ فِعليّةٍ مَنفيّةٍ ، وهو سائغٌ شائعٌ في العربيّة .

والسين في (سيصلى) هي إلى الإبانةِ عن توقيتِ الفعلِ أقربُ منها إلى توكيدِ وقُوعه ، ذلك أن المُفسَّرَ ﴿ وَتَبَّ ﴾ جُرِّدَ من التوكيد لاستغنائه عنه ، فلا يكونُ ما يُفَسِّره مفتقراً إليْه ، فـ(السّين) بيانُ أنّ ما بعدها هو جزاؤه في مصيره ، وأن ما قبلـه بيانُ جـزائه فِي مسيره . فإذا ما كانت الجملـة الأولى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ جرّدت من التوكيد ، وما يُفسّرها ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ كذلك جرِّد من التَّوكِيد ، كذلك الأمر في الجملة الثانية (تب) وما يُفسّرها ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) [١]

وقولُه : ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ من الصّلي . وهوالشّيّ ، تقُول العربُ : صَلَى اللَّحْمَ وغيرَهُ يَصْليهِ صَلْياً : بالتَّخفيفِ ، عَلَى وَجْهِ الصَلاحِ مَعْنَاهُ شَوَيْته ، فأَمَّا أَصْلَيْتُه وصَلَّيْتُه فَعَلَى وجْهِ الفَسادِ والإِحْراق ؛ وَمِنْهُ قوله : فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ، وَقَوْلُهُ : وَيَصْلى سَعِيراً .

* * *

(١) ما ذهبت إليْه من أنّ (السين) في ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ أقربُ إلى بيانِ أنَّ ما بعدها واقـعٌ في المستقبل ، وأنـَّها لم تأتِ لتوكيد الوقوع مخالفًا بِهذا ما عليْه جمهرةُ أهلِ العلم .
الّذي حملني إلى ما ذهبـت إليـه ملاحظـة الاتسـاق في مـنهج الإبانـة في الجملـتين الأولِيين وما يفسرهما ، وإلا كنا بحاجةٍ بالغـة إلى بيـان مـا اقتضـي توكيـد مُفسـر الجملةِ الثانية ، دون ما تفســره ، ودون الجملــة الأولى وما يُفسرها ، وليس عندي ما يُبِينُ لي عن ذلك المقتضِـي ، ولم أجـد أحـدًا مـن أهـل العلـم الـذين قـالوا إن (السين) هنا للتوكيد أبان عما قلت من وجوب الإبانةِ إذا قلنا إن السين للتوكيد .
بسطتُ لك القول في بيان النهجِ الذي سلكتُ وما حملني عليْه لتكون على ذكر من وجوب أنْ يكون مذهبُك في التأويل له ما يحملُ عليه ، ولـه مسـوغُه الموضـوعيّ فإنّ الذهاب بغير ما يحمل عليه ليس من شأن أهل العلم وطلبتهِ .

وفي تنكير المفعول الثاني لهذا الفعل ﴿ نَارًا ﴾ من التهويلِ ما تنخلعُ له القلوب أي سيصلى نارًا عظيمة ذات لهب متوقد لا يخبو . ولذا جاء نعتُ النار بقولِه تعالى ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وكان يُمكن أن يقُال في غيرِ القرآن ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ﴾ فقولُه تعالى : ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ للدّلالة على أنـّها نارٌ تتوقد ، وتزداد تَلَهُّبًا واستمرارًا في الصَّلي .

وهذا متآخٍ مع قول الله تعالى في سورة الهمزة : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ قوله : ﴿ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ أي التي لا يخبو اتقادها ، فهم في عذاب أليم متنوع مستمرٍّ ، لا سبيلِ إلى أن يعتاده الإنسانُ .

وفي قولِه ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد:٣) إشارة إلى أنَّها لهبٌ خالصٌ لا دخانَ فيه ، من شدةِ توقّده ، فإن النَّار إذا اشتد توقدها صفت .لا يُخالِطها دخان .

وفي قوله ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أيضًا نظر إلى كنيته ﴿ أَبِى لَهَبٍ ﴾ تشاكل جزاؤه مع كنيتِه التي كان يكرّم بها لوضاءة بشرةِ وجهه وصَفائها كما يذهب إليه جمع من أهل العلم . وقرأ الجمهور بفتح ياء المضارعة من ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ وفي رواية أبي صالح البَرجُمِيّ عن أبي بكر بن عيّاشٍ بضم الياء ﴿ سَيَصْلَىٰ ﴾ على البناء لغيرِ الفاعلِ مع تخفيف عين الكلمة ، ومنهم من قرأه مع تشديده (سَيُصَلّى)[1] .

---

(١) المبسوط في القراءات العشر ، لأبي بكر بن مهران (ت : ٣٨١هـ) تحقيق : سبيع حاكمي . نشر : مجمع اللغة العربية ـ دمشق . ١٩٨١م . ص٤٧٩، ٤٨٠، والكامل في القراءات ، لأبي القاسم الهُذَلي (ت: ٤٦٥هـ). تحقيق : جمال الشايب . ط . ١ ، ١٤٢٨هـ مؤسسة سما للتوزيع والنشر . ص٦٦٣

وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، لشهاب الدين الدمياطيّ (ت : ١١١٧هـ). تحقيق : أنس مهرة . ط .٣ ، ٢٠٠٦هـ . دار الكتب العلمية ـ لبنان . ص ٦٠٦

في قراءة الجمهور بِالفتح (سَيَصلَى) التي يُسندُ فيها الفعلُ إلى ضميرِ (أبي لهب) على الفاعليّةِ دَلالةٌ علَى أنَّ هذا الفعلَ حتمٌ لا مفرَّ منه ، وأنّه الّذي يقعُ عليه الفعلُ كأنَّه هو الّذي يقعُ منه الفعلُ ، لا اختيارَ له في ذلك ، على نحو ما تراه في « مات فلانٌ ، وتفتَّح الزَّهرُ وطابَ الثَّمرُ ، وانكسر الزُّجاجُ وهبّتِ الرِّيح ، وطلعتِ الشمسُ ... » فما أسند إليه الفعلُ في كلّ هو في الحقيقة قد وقعَ عليْه الفعلُ من فاعلٍ ، ولكنْ أسندَ إليه على الفاعلية اللغوية لا المعنوية آية على أنَّ الفعل حتمٌ ، وأَنّ ما يقعُ عليه الفعلُ لا أثرَ له فيه ، ولن يمتنعَ منه ، فهو مسيّرٌ لا مخيّرٌ .

وفي هذا من التَّهديدِ ما فِيه . وفيه أيضًا من البُشرَى لرسُولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، والذين معه ما فيه .

وقراءة ضَمّ (ياء) المُضارعة من (سَيصلى) دَلالةٌ على أنّ فاعلَ هذا به معلومٌ ، لا يكونُ من أحدٍ سواه ، فهو وحده القادرُ على ذلك ، فظهورُ اختصَاصِه بِه اقتضَى طيّ التّصريح بذكره ، فكان تركُ التّصريحِ بذكرِه أدلَّ على المُرادِ مِن ذكره ، وتلك من بلاغةُ الطَّيّ . وفيه من جلالِ الألوهية ما يملأُ القلبَ خشية .

وهذا فيه من الإشارة إلى توحيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنَّه إذا لم يكن هناك سواه يُمكن أن يصدرَ عنه ذلك الفعلُ ، فهذا آيةٌ علَى أنَّ كلّ من سِواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يصلحُ أن يكون إلهًا من دون الله تعالى أو إلهًا معه [1] .

* * *

(١) الوقف علَى (ذات لهب) وقفٌ تامٌّ ، إذا ما جعلنا قَوله تعالى ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ** ﴾ (المسد:٤)
والوقف على رؤوس الآي سُنّة متّبعةٌ .

والبيانُ القُرآني عُني بتصرِيف البيان عن النارِ وأهلها ، دفعًا للعبادِ عن مقاربَةِ ما يفضِي إليها ، وإغراءً بما يباعدهم عَنها

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

(آل عمران:١٨٥)

فالتّخويفُ مِن النَّارِ في الكتابِ والسُّنة لا يحملُ قطُّ على اليأسِ والقنوط ، ولا علَى التقوقعِ والبُعد عن تعميرِ الحياة بما ينفعُ الناس ، ولا على الزُّهدِ السلبيّ ، بل إنّ هذا التخويفَ يدفعُ إلى إتقانِ العملِ الصَّالحِ المصلح ، والإخلاصِ فيه لله تعالى ، وعلى التّسامح والصّفح والإيثار وعلى كل مكرمة أخلاقيّة إيمانًا واحتسابًا ، فلا تجدُ من الخائفِ من النار إلا ما يملأُ قلبك طمأنينة إزاءه ، فلا تتوجسُ منه خيفةً ، لأنّه يخاف أن تكون النارُ مثواه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠،٤١)

ما يذهب إليْه الذين يصدُّون عن سبيل الله تعالى متاجرة بالدُّنيا من أنَّ حديث العلماءِ والدُّعاة عن النار وعذابِ القبرِ يملأ قلوبَ الناسِ يأسًا ورغبة في الانكفاء على النَّفسِ وبعدًا عن تعميرِ الحياة ، وعن التّقدم العلمي ، وعن المنافسة في تحقيق الحضارة الإنسانية الراقية للمسلمين لا يَخلو من أحد أمرين :

إمّا أنّه مذهبٌ حملَهم عليه جهلٌ أحمقٌ استعذبوه فأبوا علاجه

وإمّا أنَّه مكرٌ أخرق مَرَدُوا عليْهِ ودبّروا له بليلٍ بهيم .

إِنّ مخافة المسلِمِ من الله تعالى عاملٌ من عواملِ الإحسان في كلّ شيءٍ ، وعاملٌ من عَواملِ تعميرِ هذه الحياة بكل ما هو نافعٌ . وأنَّ الدّنيا عنده

مزرعةُ الآخرة ، والعنايةُ بها من عنايتهم بأُخراهم . وما تخلّف المسلمون عن ريادة الدُّنيا وأهلها إلا حين خلعوا الخوف من الله تعالى من قلوبهم ، وسقطوا في مستنقع «الإرجاء» الذي يريدُ أعداء الأمة أن تبقَي فيه غارقة .

ألا يَسمعُ أولئك الجاهلون أو الماكرون ما رواه التّرمذيّ في كتاب (الزهد) من جامعه بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ النَّاسِ خَيْرٌ قَالَ «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ». قَالَ فَأَىُّ النَّاسِ شَرٌّ قَالَ «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

ورواه أحمد من حديث أبي بكرة ، ومن حديثِ عبد اللهِ بن بسر .

هذا النبأُ النّبويّ هادٍ إلى أنّ الخيرة في مَن عمل صالحًا في عمرٍ مديدٍ ، ولا يكون العملُ صالحًا إلا إذا كان نافِعًا ومصلحًا ، وأساسُ العملِ الصَّالح فِي الإسلام ثلاثٌ : الإِخلاص ـ الاتباع ـ الإتقان :

- الإخلاص بصفاءُ القصدُ وطهر النية (الاحتساب لوجهِ اللهِ تعالى)
- الاتباع بالالتزام بهدي شريعة الكتاب والسّنة ، فلا يَحيد عنها في صُنعه البتّةَ .
- الإتقان بامتلاك مهارات الجودةِ وأدوات الإجادة ، وحسن توظيف ذلك .

وهذه الثالثة (الإتقان) داخلةٌ في الثّانيةِ (الاتباع) فمن اتَّباعِ الشّرع إتقانُ العمل [1]

---

(١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم قال : «إنّ الله يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحَدُكُم عَمَلاً أن يتقنه»
رواه الطبراني في المعجم الأوسط (حديث رقم : ٨٩٧) وفي الجامع الصغير وزياداته . حديث رقم (٢٧٦١) وحسن الألباني في صحيح الجامع الصغير==

وإنما أفردته بالذكر من قبيل ذكر الخاصّ بعد العام ، إبرازًا لوجوبِ مزيدِ الاعتناء بِهِ في عصرنا ومصرنا ، فقد بات الإتقان فريضة غائبة عند كثير وغائمة عند من بقي .

هذه الثّلاثةُ هِي عَمودُ عَمَلِ المُسلمِ الّذي يَخافَ ربّه سُبحانَه وَتعالَى ، ويَخافُ نارًا ذاتَ لهبٍ أعدَّها اللهُ تعالَى لأبِي لهبٍ ولأحفادِهِ .

* * *

==وزياداته . حديث رقم (١٨٨٠) ٣٨٣/١ ، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، ط . ١ ، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرياض. حديث رقم (١١١٣) ١٠٦/٣

وإتقانُ العملِ على الوجه الذي يحبُّه الله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لا يكون إلا إذا كان صَاحبه عليمًا به وبما يستوجبه من مهارةٍ وأدواتٍ ، وكان مليكًا لتلك المهارات والأدواتِ ، مقتدراً على الوفاءِ بحق ذلك. فمن تولى عملا ليس له بأهل فإنه يفسِده، فيشيع الفساد في الأرض . والله تعالى نهى كثيرًا في كتابِه عن الإفسادِ في الأرضِ

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف:٥٦)

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥)

﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة:٦٤)

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٢)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس:٨١)

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧)

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة:٢٠٥)

معاني الهدي في الآيتين في شَأنِ امرأةِ أبي لهب :

لما أبان عن حالِ أبي لهبٍ في مسيرِه ومصيره بيانًا معجزًا بما حمله من إنباءٍ بغيبٍ وبِمعناه ومبناه أبان عن حال امرأتِه التي كانت عضده ووزيره ومحرضه على الإفسادِ في الأرضِ ، فقال سُبْحَانهُ وَتَعَالَى ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ** ﴾ (المسد:٤،٥) فهذه الآيات تبين لنا عَن أثرها عليه ، وأن لها اليدُ الطولَى في ضلالِه وتبَه .

وأنت إذا ما أبصرت حالها معه واستحضرت حال سيدتنا خديجة رضي الله عنها مع رسول الله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم تبين لك عظيم الفرق بينْهما .

وجعل الله تعالى صنيع امرأة لأبي لهبٍ قرآنًا يتْلَى ويتعبّدُ به بينْما لم يذكر صنيع سَيدتِنا خديجةَ رضِيَ اللهُ عنها مَع زوجها رسولِ الله صَلّى اللهُ علَيْهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم وترك أمره لبيان السنة النبويةِ لفتًا إلى فداحَةِ ما صنعتهُ امرأةُ أبِي لهبٍ . وأنَّ هذا ليس من شأنِ المَرأةِ أن تصنعَه البتَّةَ مَع رجلها ، فكان جديرًا بأن يجعلَ حاضرًا في لسانِ كلِّ مُسلم وسمعِه وقلبه ليتخذ له حجازًا منيعًا مِن مقاربة تلك الحال المبيرةِ .

استهلّ البيان عنها بقوله (امرأته) دون قولِه (زوجه) لفتًا إلى أنَّهما وإن تكاملا ، فإن تكامُلهما كان في الشرّ ، فلا اعتدادِ به ، والزّوجية الأصلُ فيها التَّكامل في الخير ، فكلُّ مَن كانت صاحبتُه غيرَ متكاملةٍ معَه ، فَهِيَ امرأتُه ، أَو كانت متكاملةً معَه في غيرَ الخيرِ ، فهي امرأته أيضًا ، وليست بِزَوجِهِ ؛ لأنَّ معنَى الزوّجية في العرفِ اللغوي غيرُ متحقّقٍ هنا . فالزوجُ هو الفردُ الّذي يتكاملُ وظيفةً مع مثيلِه . والاعتداد هنا بالتكامل في الخيرِ لا في الشرّ.

ومن ثَم كـان مـن السّـنةِ البَيَانيّـةِ فِـي القُـرآنِ البيـان بـالزَّوج حـين يكونـا مُؤمنين:

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾

(النساء:١٢)

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (التوبة:٢٤)

﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ (الرعد:٢٣)

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المؤمنون:٦)

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ (يس:٥٦)

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (غافر:٨)

فإن قيل إنه قد جاء في قولِه تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ (الصافات:٢٢) البيان هنا بالأزواج ، والحديثُ عن الذين ظلموا .

قلت : لا يُراد بِقوله : ﴿ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ هنا النّساء ، بل يراد أشباههم في الفعل من الذُّكرانِ والنساءِ ، وهذا ما جاء عن ابن عباسِ رضِيَ اللهُ عنهما .

قال : « قال أشباههم » فهو يناظرُ قولَهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ (التكوير:٧) أي قرنت بما يُشاكلها وجاء من قبلِه عن عمر بن الخطابِ رضي الله عنه[1]

فإن قلت قد جاء البيانُ عن صاحبة سيدنا إبراهيم عليه الصّلاةُ والسّلامُ بامرأته دون زوجه ، وهي مثيلُه في الخير ومتكاملةٌ معه في هذا الباب :
﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾
(هود: ٧١)

قلت : كانت على نهجه السلوكيّ غَيْر أنّها كانت عقيما ، فلم تكن كاملة الزَّوجيّة .

---

(١) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنه ، يَقُولُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ (الصافات:٢٢) قَالَ : « الصَّالِحُ مَعَ الصَّالِحِ ، وَالطَّالِحُ مَعَ الطَّالِحِ »
وعنه ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، يَقُولُ : « مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ (التكوير:٧) » ، فَسَكَتُوا ، فَقَالَ عُمَرُ : « وَلَكِنِّي أَعْرِفُهُ ، هُوَ الرَّجُلُ يُزَوِّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَالرَّجُلُ يُزَوَّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، ثُمَّ قَالَ [أي قرأ] : ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ (الصافات:٢٢)....
وعَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : « يَقُولُ : يُزَوِّجُ الأَمْثَالَ الأَشْبَاهُ مِنَ النَّاسِ يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ »
تفسير سفيان الثوري ، ط . ١ ، ١٤٠٣هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت ص ٢٥٢
وتفسير مجاهد بن جبر المخزومي ، تحقيق : محمد عبد السلام أبو النيل ، ط . ١، ١٤١٠هـ ، دار الفكر الإسلامي الحديثة ، مصر ، ص ٥٦٧ ، ٧٠٧
وتفسير يحيى بن سلام التيمي (ت : ٢٠٠هـ) تحقيق : هند شلبي ، ط .١، ١٤٢٥هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٨٢٧/٢
وتفسير الطبري ، تحقيق أحمد شاكر ، ط .١ ، ١٤٢٠هـ ، مؤسسة الرسالة ٢٧/٢١

وذهب السهيليّ إلى وجهٍ آخر جَوادٍ :

قال : ذكر الْمَرْأَة أليق هنا لأَنَّـهُ جـاء فِـي سِيَاق ذكـر الْحمـل والـولادة ، فَذكر الْمَرْأَة أولى بِهِ « لأَنّ الصّـفَةَ الّتِـي هِـيَ الأُنُوثَـةُ هِـيَ الْمُقْتَضِـيَةُ لِلْحَمْـلِ وَالْوَضْعِ لا مِنْ حَيْثُ كَانَ زَوْجًا[1] .

فالبيان بالزَّوجية وإن كان في أصله قويمًـا في حقّهـا إلا أن السّـياق لفـتَ إِلى معنى يقتضيه القصدُ ، وهو الحملُ والولادةُ وهو معنًى يستحضـرُه لفـظُ « المرأة » فالتفتَ إليْه .

وقد يقال : لِم جاء البيان عن صَاحبة سيدنا زكريا عليه الصّلاةُ والسّلامُ بالزوجية : ﴿ **فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٠) وهي عقيم؟

قلت : لمصاحبة قولِه تعالى ﴿ **وَأَصْلَحْنَا** ﴾ فلمَّا أصلحها ممَّا هو بها من العُقم كانت أحق بأن يكون البيانُ عنها بالزَّوجيّةِ .

وجاء البيان عن صاحبة سيدنا نوح وسيدنا لوط عليْهما وعلى نبيّنا الصّلاةُ والسّلامُ بالمرأة : ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ** ﴾ (التحريم:١٠) لأنَّـهما كانتا كافرتين ، فليست كلٌّ على نهج صَاحبها ، فلا تكامل بين كلٍّ وصاحبتِه فِي الخيرِ : رجلُها على هُدى وداعٍ إليْهِ ، وهي فِي ضلالٍ مبينٍ .

---

(١) الرَّوض الأنف للسهيلي تحقيق : عمرالسلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بـيروت ، ط . ١ ، ١٤٢١هـ ، (م.س) ١٨٦/٣

وجاءَ البيانَ عن صاحبة العزيز بامرأته دون زوجِه : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يوسف: ٣٠)

﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ (يوسف: ٥١) لأنّها لم تكن على ما تكونُ عليْه الزّوج مع زوجها: حافظة بالغيبِ .

وجاء البيان عن صاحبة فرعون عليْه من الله ما يستحقُّ بامرأته دون زوجه : ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (التحريم: ١١) لأنَّها كانت على الحقِّ ، وكان هو في الباطل ، فلا اتفاق ولا تكامل في خيرٍ . فما هي بزوجه .

وهذا يهدينا إلى أنّ الزَّوجيَّة الحَقَّةَ هِي الَّتي تحقِّقُ الوظِيفة الَّتي كان لها تُأَسّسُ الأسرةِ ، فليس الزَّواج في الإسلام لقضاءِ شهوةٍ بما أحلّ الله تعالى فحسبُ وإن كانَ هذا في نفسِه أمرًا جليلاً ، بل مِن وراءِ ذلك ما هو جليلٌ مثله أو أعظمَ منه : من وراءِ ذلك تعاونٌ وتكاملٌ في صِناعةِ الخير ، ونشرِه ، ونصرته بالحقّ وتسببٌ في نتاج من يعملُ للإسلام ونشرُه وينصُره من البنات والبنين .

وكلُّ أسرةٍ لا يتعاون فيها الصَّاحبان على هذا ، فما هما بزوجين ، وإن تصاحبا مكانا وزمانًا وإن توافقا في صِناعةِ ما ليسَ بخيرٍ ، وبهذا يُبيّن لنا القرآنُ الكريمُ باصطِفاءِ الكلمةِ عن وظيفة البيتِ المسلم :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ . . . ﴾

(النساء: ٣٤)

وهذا يُبين مسؤولية السَّامعِ والقارئ للقرآن إزاء الكلمةِ القرآنية وما فوقها بالسّعي إلى حسن تلقيها والتبصّر في منهاج دلالتها وغايات الإبانة بها ، والمقاصد التي يُراد تحقيقها بِها . إن الأمر جدٌّ عظيم ، والتَّشاغلُ عن هذا قد يلقِي بالمَرءِ في دائرة هجران القرآن : ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا** ﴾ (الفرقان: ٣٠) وما هُو بهجرِ تلاوةٍ ، فحسبُ بل أيضًا هجرُ تدبّرٍ وتبصّرٍ ، وهجرُ تأدّبٍ وتحكيمٍ في حركةِ الحياةِ كلّها .

*　　*　　*

من معاني الهدي في (الواو) في قولِه ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ :

الواو في ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ** ﴾ لها أحدُ وَجهين :

الأوّل أنّـها عاطفةٌ عطفت « امرأته » علـى الضـمير في (سيصـلى) فيكـون المعنى : سيصلى هُو وامرأتُه . وعطفُها عليه آيةٌ على أنـَّها شاركته في مسيره وما كان من أفاعيلِه ، فشاركته في مصيرِه .

وهذا يهدينا إلى أمرٍ مُهمٍّ جدًّا في حياة امرأة كلِّ رجل :

إنها شريكُه في كلّ ما هو آتٍ من خيرٍ ومن شرٍّ ، فوجبَ عليها أن ترقبَ أَمرَه ، وحركتَه في الحياةِ ، وأن لا تدعَه يفعلُ ما يشاءُ ، بل هي سائلتُه عـن جميع أمرِه ، لتطمئنَّ إلى أنـّه على صراطٍ سـويٍّ ، ووجـبَ عليْهـا أن تكـونَ عونًا له على الخيرِ ، وأن لا تحمِلَه على أن يسلُك مسالك الهلكـةِ . ولـيس صوابًا أنها غيرُ مَسؤولةٍ عن حالِ ما يطعمُها ويسقيها وما يُنفِقُ عليها أجاءَ به من طريقــه أم من غيره . كلا عليها أن تستــوثقَ أنـَّه لا يأتِيها برزقِهــا ممّـا

لا يُرضِي الله تعالى ، فالمرأةُ راعيةٌ في بيتِها ومسؤولةٌ عَن رعيّتها . وهذا فيه مِن تكريمِ المرأةِ مَا فِيهِ . إنّها مُكوِّنٌ أساسيّ مِن مُكوِّناتِ الأُسرَةِ ، وعمودٌ مِن أَعمِدتِهِ ومركزٌ رقابي محاسبيّ قويم .

أو أنّ (الواو) عطفتْ « امرأته » وما بعدها على أوّل الجملة ، فيكون من عطفِ القصّة على القصة :

عطفَ قصّة امرأتِه على قصّتِه ، فيكون قَوله تعالى ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ مرفوعًا على الابتداء ، ويكون خبره « حمَّالة الحطبِ » ، على قراءة رفع ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ ، أو ﴿ فِي جِيدِهَا . . . ﴾ على قراءة نصب ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ . وحينئذٍ يكون الوقفُ على (ذات لهب) تامًّا .

ويحسنُ في الوقفِ التام أن يتلبّثَ القارئ ؛ لِيُشعِرَ بتلبُّثِهِ السَّامعَ بتمام المعنى ، وأنّه منتقلٌ بعدُ إلى معنى آخر هو أخ لسابقِه وخدينه .

وهذا الوجه من عطف القصّة علَى القصّة يُفهم منْه أنَّها كانت رأسًا في هذا الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى ، وإنَّها لم تفعلْ ذلك مِنْ أنَّها تابعةٌ لأَبِي لهب ، بل ذلك شأنُها .

ومن هنا يُمكنُ أن نلمح لطيفةً فِي تسميةِ السَّورةِ مَرَّةً سُورةَ تبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ ، وتسمِيتها مرَّةُ بـ(المَسَد) .

والآخر : أنّ « الواو » واو الحال ، وجملة « ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ . . . ﴾ إلخ حالٌ مِن الضَّمير في ﴿ سَيَصۡلَىٰ ﴾ أي سيصلَى نارًا ذاتَ لهَبٍ حالَ كَونِ امرأتِه حمَّالةَ الحَطَبِ . [١]

---

(١) راجع في وجوه الإعراب : معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق : أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي ، ط . ١،==

و « واو الْحـال» فيهـا معنَـى العَطْـفِ والمُصـاحبة ، وتَسْـميتُنا لهـا « واو حال»، لا يُخْرجها عن أنْ تكونَ مجْتَلَبةً لِضَمِّ جملةٍ إلى جملةٍ »[1].

ومن معاني الهُدَى في القول بالحاليّة هنا أنّ هذا يُبرِزُ لنا أهميّةَ الإنباءِ عن مصيرِ امرأتِه ، ذلك أنَّ الحال حين تقع جملةً ، فهـذا يمنحُهـا مزيـدَ التفـاتٍ إليْها ، فأنت حين تقولُ : رأيـتُ محمـدًا وهـو سـاجدٌ ، فأنـت تجعـلُ منـاطَ العِنايةِ ليس الإنباء برؤيتك محمـدًا ، بـل الإنبـاء برؤيتـه علـى هـذه الحـالِ ، فالإنباءُ بهذه الحالِ محطُّ العناية ، وذلك شأنُ القيودِ ، هـي منـاطُ العنايـة فـي الإنباءِ ، فكلُّ كلمةَ تضافِ إلى ركني الجملة يكونُ لها نصيبٌ وفير من منـاط العناية ، فالقيودُ في الجُملة ذاتُ مكانة عليّة مِن القصـد في الإنبـاء ، والقـول بأنـَّها فضلةٌ إنّما يرادُ أنها ليست بالّتي يفسُدُ أصلُ المعنى بـدونها ، كالمسـند والمسند إليه ، ولكنّها التي يـنقصُ المعنـى بـدونها ، بـل قُـلْ يفسُـدُ المعنـى القصديّ بدونها ، ومِنْ ثَمَّ إنْ تَكُن القُيودُ فضلةً عندَ النحاةِ ، فهي عُنصرٌ مهمٌّ جـدًّا في المعنَـى القصـدِيِّ عنـدَ البلاغـيين إذا مـا كـان هـذا في شـأن القيـود (المتعلِّقات) في بنـاء الجملـة في عـالم البيـان ، فـإنَّ الأمـر كمثلـه في شـأن المتعلِّقات (الأبناء) في بناء الأسرة وما فوقها في عالم الإنسان . ليس هنالـك من هو فضلهُ وجوده كعدمه ، ليس فاعلاً في مجتمعه وعالمه . كلٌّ لـه فعلـه فيه وعليه مسؤليته (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عـن رعيتـه) ذلـك هـو هَـدْي الإسلام في تعمير الحياة والكون والإنسان ..

==دار المصـرية للتـأليف والترجمـة ـ مصـر . ٢٩٨/٣ معـاني القـرآن وإعرابـه ، للزجاج (م.س) ج ٥ص ٣٧٥

إعراب القرآن ، لأبي جعفر النَّحَّاس (ت : ٣٣٨هــ) تحقيـق : عبـد المـنعم خليـل إبراهيم ، ط . ١ ، سنة ١٤٢١هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٢/٥، ١٩٣

(١) دلائل الإعجاز : قراءة شاكر ص ٢١٤ فقرة (٢٤٣)

وقولـه تعـالى : (حمّالـة) جـاء علـى صـيغة المبالغـة ، إشـارة إلى مزيـد اعتنائها واهتمامها بذلك الفعل ، وأنّـها قد اتخذته رِسالةَ حياتهـا ، فهـي ذاتُ انشغال به ، واعتناء ، ولا تملّ من القيام بحقّهِ عليْها . وفي هذا من الإبلاغ في بيان فساد حالِها ، وأنَّـها غير مؤهَّلة لفعل الخيرِ . فهي مشاكهةٌ أبـا لهـبٍ في صناعة الشّرِ إن لم تكـن هي حاملـة أبي لهب على هـذا النهـج فِـي صِـناعةِ الشّر . والترويجِ له .

*　　*　　*

من معاني الهدى في قراءة «النصب» : ﴿ حَمَّالَةَ ﴾

جاءت قراءةُ عاصم بالنّصب ﴿ **حَمَّالَةَ** ﴾ ، والنَّصبُ يحتملُ أحد أمرين :

الوجه الأول : أنّـه نعتٌ نُصِـبَ علـى القطـع ذمًّـا ، وفي قطـعِ النّعـتِ عـن متابعة المنعوتِ إعرابًا لفتٌ للانتباهِ ؛ لأنّ في المخالفـةِ الإعرابيـة مـا يجعـلُ السَّمع والقَلبَ ملتفتًا إلى هذا التَّغايرَ ، فينظرُ فيما وقعَ فيه التَّغايُرُ ، والعدولُ ، فإذا هُو كلمةُ « حمالة » فيكونُ لها مزيدُ اعتناء ، فَتَتَغَوَّرُ فِي القلـبِ وتـتمكَّنُ منه ، فتُعطَى حَظًّا مِن التّأمُلِ لَيْسَ لَهَا إِنْ كَانَتْ قَدْ جرَتْ عَلَى نَهْجِ المُتَابعَةِ .

وفي العنايةِ بتأملِها في سياقِها ما يسُوقُ إلى القلب فيضًا مِن مِعانِي الهُدَى في حالِ المرأةِ وَأَثَرِها على صَاحِبِها في صِناعة الشرّ[١] .

---

(١) هَذَا مَسلَكٌ مِن مَسَالِكِ تَوكِيدِ المَعانِي ، ولَفتِ الانتِباه إِلَيهَا . فَالسَّـيرُورَةُ عَلَـى نَمَـطٍ وَاحِدٍ قَد يَدعُو إِلَى الغَفلَةِ عَن الشَّيْءِ الّذِي يُرادُ لَـهُ مَزِيـدُ اعتِنَـاءٍ ، ولِهَـذَا كَـان مِـن مَسالِكِ العِنايَةِ والتّوكِيدِ مَا يُعرفُ عِنـدَ البَلاغِـيّين بِالالتِفـاتِ في حَرَكـةِ الضّـمائِر ، كالانتقال من الغيبةِ إلى الحضـور ، فالمحـلُّ الّـذي حـدَثَ فيـه الانتقـالُ هُـو مَنَـاطُ العِنَـايةِ، وكذلك العُـدولُ عَن المُتَابعةِ العـددِيّة ، كالانتقال مِن الإفرادِ إلى التَّثنِيـةِ أو إلى الجمعِ وكذلك العدول عن المتابعة تذكيرًا وتأنيثًا كما في قولِه تعالى : ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأعراف:٥٦) ==

والوجه الآخر : لِنصبِ كلمة « حمَّالة » أنـَّها حالٌ والإضافةُ لا تمنعُ القولَ بأنـّها حالية ، لأنها ليست إضافةً حقيقية ، تكسبُ المضـاف التعريـف المـانعَ من الحالية ، فهي أشبه بالإضافة إلى النَّكرةِ ، تمـنحُ التَّخصـيصَ ، ولا تمـنح التَّعريفَ . ولاسـيَّما أنَّ المعنـى علـى الاسـتقبالِ ، فهـو وصـفٌ لحالهـا يـوم القيامةِ .

ومِن البَيِّن أن « الحالَ » في الجُملةِ بمثابة « الخبر » في الدَّلالـةِ ، فأنـت إذا ما قلتَ: محمدٌ كريمٌ غنيًّا وفقيرًا ، فقولك : غنيًّا وفقيرًا أفادَ في الإخبار عن محمدٍ ما أفاده قولك كريم إلا أن « كريم » خبرٌ لا يستقيم أصلُ المعنى إلا بِه[1]

وعلى وجهي النَّصبِ يكونُ قوله تعالى : ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (المسد:٥) هُو الخبرُ عن (امرأتِه) إنْ قلنا إنّه مرفوعٌ على الابتداءِ ، أو يكُونُ حالاً إن قلنا : إنّه مرفوعٌ عطفًا على الضَّميرِ في ﴿ **سَيَصْلَىٰ** ﴾ (المسد:٣) [2]

مِن معاني الهُدى في قراءة الرّفع : (حمّالةُ) :

جاءتْ القراءةُ المتواترةُ الأخرَى برفع (حمّالة) وهي على هذا إمّا خبرٌ عن (امرأتُه) إنْ قلنا إنَّها مبْتدأٌ ، وقوله تعالى ﴿ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (المسد:٥) خبرٌ ثان ، أو نعتٌ إنْ قلنا إنَّ « امراتُه » مرفوعٌ عطفا على الضَّمير

== عدلَ عن التأنيث في (قريـب) إلى التـذكير لفتًا إلى شـدّةِ قُـرب رحمتِـه مـنهم فإنهم المحسنون ، وفِي العدولِ الكتابي عـن رِسـم « التَّـاء » في « رحمـة » مربوطَـةً (رحمة) إلى (التاء المبسوطة) (رحمت) مزيدُ لفت الانتباهِ إلى عظيمِ اتساعِ رحمتِه لهؤلاءِ فإنَّهم المحسنونُ . وفي هذا من التَّرغِيبِ في مقـامِ الإحسـان مـا فيـه ، وكـلُّ ذلك يجري في منهاج التَّثقيف النَّفسيّ في البيان القرآنيّ ، وهو منهاج جد وسيع .

(١) ينظر في قسمي الخبر في الجملة كتاب : دلائل الإعجاز لعبـد القـاهر . ص ٢١٢، ٢١٣. فقرة (٢٤١) .

(٢) جاءت قراءةٌ غـير متـواترة بتـنكير « حمالـة » وقطعهـا عـن الإضـافة ، مـع النصـبِ وإعماله النصب في ما بعده : حمالةً الحطبَ . وهي بهذا تكون حالا
وجاءت قراءَةٌ أخرى غيرُ متواترة : حمالـةً للحطـبِ بجـر « الحطـب » وهـي حـالٌ أيضًا من « امرأته ».

في ﴿ سَيَصۡلَىٰ ﴾ (المسد:٣) ويكون قوله تعالى ﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ (المسد:٥) نعتًا ثانيًا .

ومجِيْءُ النَّعت جملةً عقبَ النَّعتِ المُفردِ سائغٌ شائعٌ في العربيَّة .

وقوله ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ هُو بيانٌ لحالِها في الآخرةِ ، وليس بيانًا لحالها في الدُّنيا إلا على سبيلِ الاستعارة بأن يُصورَ قيامها بالفتنة والإفسادِ في صُورة حمالةِ الحَطبِ .

وصُورةُ حملِ الحطبِ على الحقيقةِ ممَّا تَنفِرُ منه المرأةُ العربيَّة ؛ لأنّـه مِن الامتهانِ الّذي لا يكونُ إلا للإماءِ ، فإذا ما كانتْ المرأةُ العربيّة نافرةً مِن حملِ الحَطب على الحقيقةِ وهو ما يُنتفعُ بِه ، فالأولى بها في منطِقِ العَقل الفطريِّ أن تكون أشد نفُورًا من حمل الحطب على المجاز : حملِ الفتنة والإفساد ، والسَّعي بهما بيْن الناس فإنّ ذلك ممَّا يُضِيرُ ويُبِيرُ ، فهو أولى بالهُجران ، ولكنّ أكثرَ النَّاسِ لا يعقِلون .

والقولُ بأن عبارة « حمّالة الحطب» مجازٌ عن ارتكاب جريرة النَّميمة ممَّا شاع البيانُ بِه في لِسانِ العربيّة .

وهذا يُبين لنا أن العربَ قبل الإسلام كانت فطرتهم تنفرُ من هذا الدَّاءِ الوَبِيل المُبيرِ ، ولهذا جاء عن رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم أنه قال : « خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا»[1]

---

(١) روى البخاريّ في كتابِ (التفسير) من صَحِيحِه بِسَندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلى آلِهِ وصَحبِه وسلّم : أَىُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ قَالَ : « أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» .قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ : « فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِىُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِىِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِىِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ» ==

وفي القولِ بأنَّ قَولَه تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ ليسَ على الحقيقةِ في مسيرِها لأنها كانت من أشرافِ قريشٍ[1] وأن ذلك على سبيل المجاز يصوّر

==قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِى ؟» . قَالُوا نَعَمْ . قَالَ « فَخِيَارُكُمْ في الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ في الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا» .

معاني الهدى في هذا الحديث :

هدي رسُولُ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم إلى أنَّ العربَ قبلَ الإسلامِ لم تكن خلاءٍ من مكارِم الأخلاقِ ، بل كان لهم من ذلك نصيبٌ موفور ، وجاهليتهم لم تكن جاهليّة أخلاقية ، بل كانت جاهلية عقدية ، مرتبطة بعقيدة التوحيد ، كانوا مشركين بالله سُبحانه وَتَعَالى ، فلا يستقيم أن يُفهم نعتهم بالجاهلية أنّها جاهلية أخلاقية ، كلاَّ .

الجاهلية التي نحن غارقُون فيها هي الجاهلية الأخلاقيّة ، وإن كنا نعلن في الدنيا أنّنا نوحد الله تعالى . لانعبد أحدًا سواه ، لذلك لمَّا ترك المشركون جهاليتهم العقدية كانوا بما معهم من عظيم مكارم الأخلاق ما ملأ الدنيا عدلاً ونورًا وهدًى ، ونحن في عصرنا هذا على الرَّغم من أننا نعلن صباح مساء : « لا إله إلا الله محمّد رسُول الله» ونملأ الأرضَ مساجد إلا أن جاهليتنا الأخلاقية تهاوت بنا في سفح الحياةِ ودركها الأسفلِ ، فلم يلقَ الناسُ منا إلا ما يُنفرهم عن الإسلام ، فنحنُ من أكبر عوائق انتشار الإسلام . ونحن بهذه الجاهلية الأخلاقية نتلبس بشيءٍ من جريرة الصدِّ عن سبيلِ الله تعالى ، وتلك هي الحالقة الحارقة ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون .

(١) جاء في كتب السّير آثارٌ تخبر أنَّها كانت تحملُ بِنفسِها الشّوك فتضعُه في طريق النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ليؤذيه ، وهذا إن صح ، فهو يُصوِّرُ لنا عظيم ما يعتملُ في صدرِها مِن بغضٍ لرسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ، وأنها تتلذَّذ بهذا العمل القميءِ ، لفساد نفسِها ولا تدعه لخدمها يباشرونه عنها ، فبلغ بها من سوء حالِها ، وفساد فطرتها ما أنساها منزلها في قومها شرفًا ، فباشرت ما يَستحيي منه من هو أَدنَى منها منزلةً في القوم .

وهذا يبرزُ لنا عظيم أثرِ « البغضِ ، والشّحناءِ» في مسلك صَاحبِه ، يخرجه عمّا يجبُ أن يستمسك به ويُقيم عليه من الترفع عن صَغائرِ الأفعال والأقوال ==

لنا عظيم خَطر هذا الخلق القَمِيءِ في إهلاك العلاقاتِ بين الناس ممّا يترتبُ عليه من التّعادِي والتَّناحر ما لا يُطاق . فالسَّعي بالنّمِيمَة ، ممَّا تقعُ به شرور جسام ، فالمرأة الشريفة نسبًا وحسبًا هي من أنفر الناسِ عن هذا .

وبعضُ أهلِ العلم على أنّ ذلك يصور مصيرها ، فهي تحملُ أوزارها يوم القيامة كما يحمــلُ المـرءُ الحطب ، فيوقـدُ به النّار ، فهي تحمــلُ أوزارها يوم القيامةِ لتكون وقود نارها التي تعذب بها . وكأنَّ في هذا بيانًا لما استوجبته من النَّار ، فهي التي اجتهدت في استحقاقِها ذلك العذاب يوم القيامة . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:١٣٩)

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل:٨٨)

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت:٢٨)

والقرآن الكريم يُصَرِّفُ هذا المعنى : معنى أن العصاة والطغاة هم الـذين يجتهدون في أن يكونُوا مستحقِّين لِما يكونُ لهم مـن العـذابِ يـوم القيامـة ، ولذا كثُرَ في القرآن وصفُ العُصاة والطغاة بأنهم أصحابُ النَّارِ :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

(البقرة:٣٩)

==والأحوال، فإن ابتلي بشيْءٍ من ذلـك اسـتتر ، وجاهـد في التخفّـي . فـإذا رأيـت أحدًا ممّن حولك على مثل هذا فاعلم أنّـه من أحفاد أبي لهـبٍ وامرأتِـه .وفي كـلّ هذا ما يُثّقّفُ النفس فتفر من هذا الدّاء الوبيل داء البغضاء والشّحناءِ فرارًا يقيها مـن سوء الذكرى وسوء المصير .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِ‌ۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (الأعراف:٣٦)

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (الحج: ٥١)

وغير ذلك كثير في البيانِ القُرآني .

وعبارةُ ﴿ أَصۡحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (المائدة:٢٩) تهدِي إلى أنّـهم صَحِبوا ما استحقُوا به النَّار ، فكأنّهم ما فعلُوا ذلك إلا ليكونُوا أصحابَ النّار ، والصُّحبة تقتضِي المُداومة على الشّيْء ، وهذه المُداومة لا تكون إلا مِن تعمّل ، وتدبيرٍ . وهُم بحقٍّ يَصحبون النّار فِي مَسيرهم وسَيصحَبونَها فِي مصيرِهم .

يصْحبُونَها فِي مَسيرِهم بِما يقترِفُونه مِن صِناعةِ الشَّرّ وإدارتِه في الأرضِ ، فهم بهذا يَحرّفُون الفطرة الّتي فَطرهم الله تعالى عليها ويحرّفون كلَّ القِيم الآدميّة التي ورثها المرءُ عن أبينا آدمَ عليْهِ الصلاة والسلام .

إنّ صُنَّاعَ الشَّرِ هُمْ فِي حَقيقةِ أمْرِهم قائمُون فِي نَارٍ حقيقيَّةٍ إلاَّ أنّـها نارٌ معنويَّةٌ لا تَشعُرُ بها أجسادُهم ، ولكنّ قلوبَهم تحترقُ بِها .

ألا تسمعُ اللهَ تعالى يقُول فِي شأن الّذين يتاجِرون بكتابِ اللهِ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً‌ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِى بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤)

وفي شأنِ الَّذين يأكلون أموالَ اليَتامَى ، يقُول سُبحانَه وتَعالَى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٲلَ ٱلۡيَتَـٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِى بُطُونِهِمۡ نَارًا‌ۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ١٠)

قولُه تعالى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ (البقرة:١٧٤) و ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (النساء:١٠) الأكل فيه على الحقيقةِ لا على المجاز وكذلك «النار» وإن قالَ بالمجازية بعضُ أهلِ العلم فالأعلى أنّ هذا حقيقة لكنَّها ليست بنارٍ حِسّية تراها الأبصارُ ، وإنّما هي نارٌ معنويّة تراها البصيرةُ ، هي تحرقُ الفطرة السّوية ، والقيم الإيمانية ، فلا تكادُ تبقى شيئًا[1] .

ألا ترَى أنَّه قال بعد ذلك : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

---

(١) جمعٌ من أهلِ العلم بلسان العربية ذاهبٌ إلى أنّ الكلمة إذا ما كانت لها دَلالة على أمرٍ حسيّ ، ودلالةٌ على أمرٍ معنوي ، فدلالتها على ما هُو محسوس هو الحقيقةُ ، ودلّالتها على ما هُو معنويٍ مجازية ، من أنّ الوضع اللغوي الأوّل كان يضع الألفاظ إزاء المدلولات الحسية ، فالإنسان الأول كان إدراكه المحسُوسات أسبق من إدراكه المعقُولات .

هذا المذهبُ غيرُ مؤسَّس على يقين ، بل غيرُ مؤسَّسٍ على ما يهدِي إليه البيانُ القرآني من أنّ الإنسانَ الأول (آدم عليْه الصّلاةُ والسّلامُ) لَم يكن بدائيًّا في الإدراك والفهم والإفهام .

كلاَّ . الإنسانُ الأول كان نبيًّا صنعه الله تعالى بيده ، وعلَّمه الأسماء كلها وأسكنه الجنة ، وأسجد له الملائكة . فكيف يكونُ كما يزعمون ؟!!

أحقًّا لم يكنِ سيدُنا آدم عليْه وعلى أبنائه الأنبياءُ جميعًا الصّلاة والسّلامُ يدرك إلا ما كان محسُوسًا . ؟!!!

أكان لا يعرف معنى الحُب والبغض ، والإيمانِ والكفر ؟!!

ألم يكن يعرف مثلاً أنَّ العمى عمى بصرٍ وعمى بصيرة ؟!!!

من ذا الذي يقول إن آدم عليه الصّلاة والسلام كانت الألفاظ عنده في أوّل الأمر إزاء مدلولات حسية ، ثم نقلها من موضوعها الحسي إلى المعنوي ؟

أي دليلٍ على هذا ؟ إنّه ضربٌ في الغيب بغير بينة .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء:٣٦).

هذا يدلّك على أنَّ ما قبلَ ذلك يكونُ في الدنيا ، وهذا في الآخرة ، فلهم عقُوبتان :

العُقُوبة الأولى في الدُّنيا ، وهي الحرمانُ مِن الشُّعور بما هم فيه من فُجور :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِى لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣)

﴿ فَذَرۡنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِى لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ ﴾ (القلم: ٤٤، ٤٥)

وذلك بتهالُكِ الفِطرةِ السَّوية التي خلق كلّ مولود عليها ، وإبادة القيم الإيمانية من نفوسِهم .(١)

﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَـٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٦)

---

(١) روى الشيخان : البخاري في كتاب (الجنائز) ومسلم في كتاب (القدر) من صَحيحِهما بسندِهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ » .

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠)

وهذا يصور لنا عظيم جناية الآباء على الأبناء ممَّا يجعل الأبناء حين يكبرون أسرع إلى العقُوق منهم إلى البِرِّ بآبائهم ، جزاءً وفاقا .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨)

﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ (غافر:٣٧)

والعقوبة الأخرى تتمثلُ في قولِه تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

وفِي قولِه سُبحانَه وتَعالَى : ﴿ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء:١٠)

وأمثال أولئك يتنقلون كلَّ صباح من دَرك من دركات الفجور إلى درك أعظم ، ولا ترى واحدًا من أمثالِهم ، يؤوب إلى رشدِه لأنَّ النار تلتهم ما فيه من الفطرة والنفسِ اللّوامة .

فالله تعالى حين قال فِي شأن امرأة أبي لهبٍ ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ (المسد:٤) هدَى إلى ما استوجبَ لَها أن تكون في مصيرها من أصحابِ النار . إنّها هي التي حملت أوزارًا على كاهلها في مسيرها في الدنيا ، واصطحبت ذلك ما تخلت عنه ، فكان عدلاً ألا تحرمَ في مصيرها في الآخرةِ ممّا حرصت على اصطحابِه في مسيرِها في الدُّنيا .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (يونس:٤٤)

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾ (هود:١٠١)

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الزخرف:٧٦)

فمن سلك مسلكها وسار مسيرَها من أحفادِها في كلّ عصرٍ ومصر ، فإنَّ مصيرَه هو هو مصيرُ حمَّالة الحطب (الأوزار) يوم القيامةِ :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣١)

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل: ٢٥)

* * *

وجاء قوله تعالى : ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ (المسد: ٥) شفيعًا لقولِه تعالى ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ (المسد: ٤) مصوراً الهيئة التي تكونُ عليْها في جهنّم يوم القيامة ، وهي هيئة تجمع بين أمرين عظيمين:

الأول : المهانة ، والآخر : الإيلام .

أما المهانة فهي العربية الشَّريفة التي كانت تتصايحُ في النَّاس أن قريشًا قد علمت أنَّها ابنةُ سيدها ، فكان من هوانها وإهانتها أن يُجعل في جيدِها حبل من مسد يوم القيامة وهي في وسطِ قومِها الذين كانت في الدنيا تتفاخر بيْنهم بحُليّها وزينتها ، ولذا نجدُ القرآن الكريم يَصِفُ عذاب من كانوا يتعالون على النَّاسِ ظلمًا وعدوانا أنّه عذاب مهين:

﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (البقرة: ٩٠)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٨)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (لقمان: ٦)

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

(الجاثية: ٩)

فأولئك الذين يتعالون على الناس بأنسابهم أو مناصبهم ، وأموالهم وسلطانهم ظلمًا وعدوانا ويغمطونهم لهم عذابٌ مُهينٌ يوم القيامةِ ، فإنَّ غَمطَ النّاس واحتقارهم والاستخفافِ بِهم شطرُ الكِبر :

الكِبْرُ ضربان :

- بَطْرُ الحَقّ حجدُهُ ودفعه وردّه .
- وغمط النَّاس واستحقارُهم واستصغارُ شأنِهم[١]

اصطفاء كلمة « الجيد » ، إشارة إلى أنّه ليس لها يوم القيامةِ من الحليّ الذي يكون في جيدها إلا حبلٌ من مسد ، فاصطفى الاسم الذي يذكر في سياقِ المدح والوصف الجميل ، فأورده في سياقِ العذاب والهوان ، على سبيل التهكم ، فهو من باب : « تحية بينهم ضربٌ وجيع » وهو باب في العربية وسيع بديع نفيع[٢] .

وزاد الأمر تهكمًا أن جعل قلادتها في جيدها حبلاً ، والحبلُ في لسان العربية مَا يُرْبَطُ بِهِ الأَشْيَاءُ والحيوانات ، ويجعل في غالبِ الأمر في عنق

---

(١) روى مسلم في صحيحه من كتاب (الإيمان) بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ، صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم ، قَالَ :
« لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ».
قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً .
قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

(٢) إن رغبت في حميلٍ جليلٍ جميل من هذا فانظر : شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي (ت : ٤٢١هـ) نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ـ ط . ١ ، ١٤٢٤ هـ . ص١٧٩،٤١٣،٤٥٥، ٩٧٠، ١٠٣٥، ١٢٣٨

الحيوان ، وكانوا يجعلون في عنق العبيد والإمــاء حبلاً ، ولا يظنُ أنّ الحبلَ لا يكونُ إلا من ليفٍ ، بل يكون من ليفٍ وشعرٍ وجلد وحديدٍ ونحو ذلك ، فالحبلُ كلُّ ما يُمكنُ فتله ، ويُربطُ بِه ، يقال : حبلـت فُلانًـا أي ربطتُـه ، وفي هذا من المهانةِ ما فِيه .

وجعل هذا الحبل أيْ ما تربطُ بِه من «مَسدٍ» أي مـن حديـدٍ مَمسـودِ أي محكم المسد «الفتل» ، فكلمة (مسد) تُفهم معنـى شـدة الفتـل ، ولـذا يقـال فلان ممسود أي محكمُ الخِلقة : أي ذو بنية جسديّةٍ متماسكة ، فقولُه (مسد) صِفةٌ لموصوفٍ محذوف أي حبل مِن حديد مَمسود . وهو وصفٌ بالمصـدر كقولنا : عمر عدلٌ ، إبلاغًا في كماله في الصفةِ وكمالِ الصّفةِ فيه . كمـا هـو شأن الوصفِ بالمصدر في سنّة البيان بالعربيّة .

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن هذا الحبل هو ما جاء في قولِ الله سُبْحانَهُ وتَعَالَى : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣٢).

يَقُول الواحديّ : «والمعنى أنّ السّلسلة الّتي في عنقها فُتلَتْ من الحديد فَتْلا محكمًا ، ولوي ليًّا شديدًا ، وهي السّلسلة التي ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ (الحاقة: ٣٢)»[١]

ففي هذا البيان عظيمُ تصويرٍ لما تكونُ عليْه امرأةُ أبي لهـبٍ يـوم القيامـةِ لما كانت عليه من سيئ الخُلقِ في مسيرها في هذه الدُّنيا .

وأنت إذا ما نظــرت في ما خُتمت به السُّــورة رأيت أنّـها تنعطــفُ علـى ما استفتحت بِه من تباب قُوةِ أبي لهـب وعتـادِه وسُلطانِه وتبابِـه هُـو ، فِمـن تبابِ ذلك تبابُ امرأته ، فهي من يديه (كسبِه) أيضًا ، وهلاكها مـن هلاكـه ، ولاسيّما أنـّها كانت ذات أثرٍ بالغٍ فِيه .

---

(١) التَّفْسيرُ البَسِيْط لأبي الحَسَنِ الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) (م.س) ٤١٧/٢٤

وجاء البيان عن حالِها محتملاً وجهين في النّسق :

الوجه الأول أنّ (الواو) في (وامرأته) عاطفة ما بعدها على صدر الآية ، فكان عطف قصةٍ على قصّة ، وفي هذا إشارة إلى أنّها كانت رأسًا فيما يُكادُ بِه رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

والوجه الآخر يجعلها تابعةً ، سواء قلنا إنّ الواو عاطفة (امرأته) على ضميره في (سيصلى) أو قلنا إنها حالية ، وصاحب الحال هو الضميرُ في سيصلى ، وهذا يفهم أنّها كانت سندَه وقرينةُ له فيما يصدرُ عنه من إيذاء ، وتصدٍّ للدعوةِ[1] .

---

(١) وممّا يحسُن التلبثُ عنده أنّه يصحُّ الوقفُ على آخرِ « سيصلى نارًا ذات لهبٍ وامرأتُه » على أن الواو عاطفة « امرأته » على الضّمير في « سيصلى » .

ويكون قولِه « حمالة » على أنّه خبر مبتدأ أي هي حمالةُ الحطبِ ، فيبدأ القراءة بقوله « حمّالةُ »

أمّا إن رفعنا « حمّالة » على أنه نعت لقولِه تعالى « امرأته » ، فلا يستقيم الوقف على قولِه « امرأته »، لأنّه لا يفصل بين النعت ومنعوتِه بالوقف .

وكذلك لا يستقيم الوقف على « امرأته » إن قرأنا (حمّالة) بالنصبِ على الحاليّة كما هي قراءة عاصم لأنّ (الحال) كالصفة .

وإن جعلنا النصب في « حمّالة » على الذّم جاز الوقف على « امرأته ». فالكلام كاف دونها ، والاستئناف بجملة الذم سائغ . يقُول الشاعر :

سقونِي الخَمرَ ثُمّ تكنفونّي عداةَ الله من كذبٍ وزورِ

جاء قوله (عداة الله) منصُوبا على الذّم .

ويجوز الوقف على « الحطب » بناء أنّه رأسُ آية ، والوقف عليه سنة ، وبناءً على أن قوله من بعدُ « فِي جِيدها ... » خبر عن ضمير « امرأته » أي هي في جيدها حبل من مسد ، فإن جعلته خبراً ثانيا ، فلا يوقف على (الحطب) إلا اتباعا للسّنة .

ومن الحسنِ أن يُعنى طالبُ العلم بكتابِ الله تعالى بهذا الباب ، ولا سِيما طالب العلم ببيانِه وبلاغتِه ، فإنّ هذا الباب من أجل أبواب فقه المعنى القرآنيّ .

وهذان الوجهان يمثِّلان ما كانت عليه، فبعضُ الأمرِ كانت هي الرّأس فيه، وبعضه كانت شفيعًا وقرينا لأبي لهبٍ فيه.

وهذا يهدينا إلى أنّ امرأة الطاغية إذا سكتت عن طغيانِه فإن مصيرَها كمصيرِه، وأن على القضاء في الدُّنيا أن يجعلها شريكًا له في ما طغَى فيه، لأنّها بسكوتِها عمَّا صنعَه من الفسادِ في الأرضِ كانت عونًا له على ذلك، فعلَى القضاءِ إن كان راغبًا في العدل ـ أن تُجازى امرأةُ كلِّ طاغية بما يُجازَى بِه، لأنها شريكُه في ما اقترفَ.

وفي هذا دعوةٌ إلى التعاون علَى مكافحة صناعة الخطيئةِ ونشرها في الأرضِ، فليستْ رسالتك مسلمًا أن تكون في نفسِك صَالحًا بل لابد أن تكون صَالحًا في نفسِك مصلحًا غيرك وما حولَك، وهذه الثانية أن تصلح ما حولك لا يرضَاها أحفاد أبي لهبٍ من السّياسين ... فشعارهم: «خليك في نفسك» وهذا هو السبيل إلى استضعافِ أهلِ الحق أي طلب إضعافهم والعمل على أن يكونُوا ضُعفاء، فإن الحقّ يُحتاج إلى التعاون عليْه إيمانًا واحتسابًا. ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة:٢) فالمنهج في الإسلام أن العملَ جَماعيّ تعاوني وتآذريّ والمَسؤولية فرديّة. وكلُّ عمل فردي هو عملٌ خداجُ في نفسِه وأثرِه. وما امتطى الطغاة من بني جلدتنا أو غيرهم إلا لما اكتفَى كل مسلم بالنَّظر في أمرِه، وتعامى عن النظر في شأن الأمة.

يقولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٧١)

روى البخــاري في كتـاب (الصــلاة) و(المظــالم) و(الأدب) ومسـلم في (البر والصلــة والأدب) في صحيحيهما بسندهمـا عَنْ أَبِى مُـوسَى عَنِ النَّبِىِّ ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قَـالَ « إِنَّ الْمُـؤْمِنَ لِلْمُـؤْمِنِ كَالْبُنْيَـانِ ، يَشُـدُّ بَعْضُـهُ بَعْضًا ». وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ .

وإذا ما سعى كل مسلم إلى طاعة الله تعالى وطاعةِ رسُوله صَلّى اللهُ علَيْـهِ وعَلى آلِه وَصَحبِه وسلّم فكان وليًّا لكل مسلم أيـًّا كان جنسُـه ومصـره فـإنّ ذلك ليردي أحفادَ أبي لهبٍ ، ولـن تجـدَ لهـم في الأمـةِ أثـرًا مَهمـا تكاتفـت جهودهم وتكاثرت أعوانهم ، وتنوعتْ مناهجهم وأدواتهـم . فـالله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ قد هدانا في رأس معاني الهـدى في سـورة « المصـطفين الأخيـار : سورةِ آلِ عمران قائلا :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

وقال في سورة (العصر) بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ ﴾ (العصر: ١-٣)

* * *

فاصلة

رسالةٌ إلى أحفاد أبي لهب وإلى أعدائه

هذه السُّورةُ تحملُ رسالتين :

الأولى : رسالة جاء مضمونها محمُولاً في صريح البيانِ ومنطوقِه لما لها من الأهمية العظمى .

والأخرى : رسالة جاء مضمونها محمولاً في تلويح البيان ومفهومِه تأكيدًا لما جاء به صريح البيان في السُّورةِ قبلها : سورة الفتح والنّصر .

الرسالة الأولى رسالة إلى أحفاد أبي لهب :

لم يكن الكفرَ بالله تعالى وحده هو الذي جعل أبا لهبٍ وامرأتَه في هذا الذي سمعت ورأيتَ ، ذلك أنَّ الكافرين بالله تعالى في زمن أبي لهبٍ وفي كلّ زمانٍ أكثر مِمّن آمن بالله تعالى .

أبو لهبٍ وامرأتُه اتخذا منهجًا آخر فوقَ منهجَ الكُفرِ بالله تعالى ذلك هو منهاجُ الفجور في العداءِ للإسلامِ وللحقِّ عن علمٍ بأنّه الحقُّ ، ومنهاجُ الفجور في الصّدِّ عن سبيلِ اللهِ تعالى .

اتخاذ هذا الفجور في الصدّ عن سبيلِ الله تعالى منهاجَ حياةٍ ، واتخاذ بطرَ الحقّ ودفعَه ، ومجالدته دينًا هو عمود شخصية أبي لهب وامرأته وشخصية أحفادهما في كلّ عصرٍ ومصر .

إنَّ اتخاذَ الفجورِ في الصَّدِّ عن سبيلِ الله تعالى بلسانِ الحال أو لسان المقالِ أو بهما معًا منهاجًا واتخاذ بطر الحقّ دينًا هو من الاستكبار الّذي هو دين « إبليس » الذي حمله على أن يجاهرَ بمعصية الله تعالى ، ويأبى أن

يسجد لما أمرَه الله تعالى أن يسجدَ له ، فكان جزاؤه الطّردُ من رحمة الله تعالى واستحقاق اللعنة .

يقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٦-٣٣)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء: ٦١)

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (ص: ٧١-٧٨)

كذلك يصرّف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى البيان عن حال إبليس ودفعه الحق واستكباره وغمطه آدم عليهِ الصلاةُ والسّلام ، لما لهذا التصّريفِ من الأهمية العظمى في حياة النّاسِ ، وليكون ذلك الموقفُ الإبليسيّ حاضراً في وعي كلّ عاقلٍ ، فيحاذره ويفرّ منه .

الاستكبار هو مفتاح شخصيّة إبليس وجنده وقد كان لأبـي لهـبِ وامرأتِـه منزلة متقدمة وقدمٌ راسِخُ وتفنن بالغٌ في هـذا الاسـتكبار ، فجمـع أبـو لهـبٍ وامرأتُه ثلاثًا :

الكفرُ بالله تعالى عن علم بالحق .

بطر الحقِ ودفعُه .

والصدُّ عن سبيلِ الله تعالى .

هذه الثلاث هي مكونات شخصيّةِ أبي لهبُ ، فمن سلك ما سلك أبو لهبٍ وامرأتُه كان من أحفادهما في أيِّ عصرٍ أو مصرٍ .

ومن حـقّ كلّ عـاقلٍ أن يحسـنَ التبصّـرَ في حـالِ أبـي لهـبٍ وامـرأتِه مسيرًا ومصيرًا ، ثم يُحسن التبصّر في حالِ نفسِه ، ومدى مباعدتِه عن مناهج أبي لهبِ وامرأته ، ومدى مقاربته منـه ، ليعـرف مواقـعِ أقدامـه ، فقـد يغفـلُ المرءُ عن حالِه ، بينما هو شديدُ القُـرب مـن حـالِ أبـي لهـبٍ ولا سـيّما في الثَّانية والثَّالثة : بطر الحقّ والصَّدِّ عن سبيلِ الله تعالى .

غيرُ قليلٍ من النَّاسِ يقترفُ هذه الموبقة : **بطر الحقّ** ، وهو غافـلٌ عـن أنّ هذا بطرُ الحق ، وأنَّ هذا شطرُ الاستكبارِ ، وأنَّ من كـان في قلبِـه مثقـالُ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ لا يدخلُ الجنّة .

لتنظر فيما يجرِي في هذه الحياة مـن حولـك في كـثيرٍ مـن المجتمعـات والطبقات على تنوعها ، تجد هذا قائمًا مجاهرًا بِه من غير قليـلٍ مـن العامـةِ والخاصة ، بل هو في طبقةِ من ينتسـبون إلى أهـلِ العلـمِ والـدّعاةِ .وهـو في طبقة « المحامين والسّياسيين والإعلاميين جدُّ كثيرٍ » .

يحملُ على هذه الموبقة المبيرة : « بطر الحقّ» الشعور بالذّات ، والاعتداد بها ، والرّغبة العارمة في الانتصار لها ، فيقف في وجه الحقِّ وهو بِـه علـيم ،

اتقاءَ انتصار الآخر عليْه ، لأنّـه نظر إلى ذاتِ الآخـر ، ولم ينظـرْ إلى الحـقّ الذي معه ، وتغافل أنّ الحقيقة الكبرى : **ليسـت قيمـة أحـدٍ في ذاتِـه ، إنّمـا قيمتُه في ما معه مِن الحقِّ .**

أنت عزيزٌ بما معك من الحقِّ ، فعزتك تدورُ مع الحقِّ حيث دار .

تلك هي الحقيقة والحقّ ، ولكنَّ غيرَ قليلٍ من الخاصة في مجالِ السياسة والعلم والمحاماة ... شعارهم :

- أنا الحق .
- يدور الحق معي حيثُ أدور .
- حيثُ أكونُ يكون الحق .

نعم هم لا يقولون ذلك بلسان مقالهم ، لكنَّ ألسنة أحوالِهم تصـرخ بهـذا صَباح مساء .

تلك هي الحالقةُ الحارقة .

والأخرى : الصّدّ عن سبيلِ الله تعالى .

هذه من الموبقاتِ التي يمارسُها غيرُ قليلٍ من المسـلمين دون أن يشـعروا ولاسِيّما سَحرةُ إبليس . بل إنّ كـثيرًا مـن المسـلمين هـم العقبـة الكـؤود في طريقِ نشر الإسلام ، لأنّ غير المسلمين ينظرون في الإسلام منهاج حياة ، كما هو في بيانِ الوحي قُرآنا وسنّة ، فيرونه عَلِيّ القدرِ جليـلَ المنزلـة داعيًـا إلى العزّة والرَّحمة ، وينظـرون في حـالِ أتباعِـه ولا سِـيما في الـوطنِ العربـيّ ، فيرون ما لا يقبلُ عاقلٌ أن يكون هذا حالُه من الكـذب والغـشّ ، والخيانـة ، والمداهنةِ ، وحبّ النفسِ ، واستحلالِ الحرامِ ، فالحلالُ عنـدهم مـا حـلّ في يديك ، والحرامُ ما عجزت عنه ، فإن عليْه قَدرتَ صـار حـلالا ... إلى آخـر

كلّ مفسدةٍ في الأرضِ . فيحاجزهم حالُ المسلمين عن أن يكونوا مسلمين ، وهذا مِن أكبر عوامل الصّدِّ عن سبيل الله تعالى ، ومن أعتى عوائق انتشار الدّعوة في الناسِ .

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف:٣٦-٣٩)

ليس الصّدُّ عن سبيل الله تعالى منحصراً في مدافعته بالسّيفِ ، بلْ تلك المدافعة هي أهون أدوات الصدّ عن سبيلِ الله تعالى وأضعفها أثرا ؛ لأنّ هذه المدافعة بالسّيفِ تستثير حميّة كلّ مُسلمٍ وإن كان عاصيًا ، فيغضبُ لدينه ، في الوقتِ الذي هو يمارسُ ما تريد المدافعةُ بالسيفِ أن تبلغه ، وهذا من المبكيات دمًا ؛ لذا لم يُعنَ أعداء الإسلامِ اليوم بمدافعة الإسلامِ بالسَّيْفِ كما كانوا من قبل ، تركوا ذلك ، وأوكلوا مهمة الصّدّ عن سبيل الله تعالى ومدافعة الإسلام ، ومحاجزته عن الانتشار ، وعَن أن يكون دين النّاسِ في الأرضِ إلى جمهرةٍ ممّن ينتسبون إلى الإسلامِ وراثة . اتخذوا من أفعالهم وأحوالِهم وأقوالهم سبيلاً إلى ما كانوا يريدون تحقِيقه من مدافعة الإسلام والصدّ عن سبيلِ الله تعالى بالسّيف .

إن إعلاميًّا واحدًا فاسدًا في قناة تلفازية واحدة لَيقُومُ بما يعجزُ عنه جبشٌ عرمرم يبغِي دفع الإسلامِ ومنعه من أن يبلغ الناس ، ويبغِي الصدّ عن سبيلِ الله تعالى .

وإن فنانًا واحدًا عاهرًا يفوق أثره في المدافعة والصد عن سَبيلِ اللهِ تعالى أثر كتيبة مدججة بأعتى الأسلحة .

وإن أستاذًا جامعيًّا واحدًا فاجرًا ، علمه في لسانِه ليفسدُ ويصدُّ عن سبيلِ الله تعالى أكثر من فرقة متترسة بأحدث المعدات الحربية .

وإن خطيبًا ماجنًا استحبَّ الحياة الدُّنيا على الآخرة ، استعبدته شهواتُه وملذاته يخرج على الناس كلّ جمعة على منبرٍ في مسجدٍ ، فيفسُد حالُه ما يدعو إليْهِ مقاله : لسان مقالِه يدعو إلى الهُدى ، ولسان حالِه خارج المسجد يسوق الناسَ إلى الفجور سوقًا .

وإن شيخًا واحدًا من شُيوخ الفتنة والفجور عبدةِ السلطانِ ليفسُد ما يصنعه جمعٌ متكاثرٍ من صالحي الدّعاة إلى الله تعالى ، ولا سيّما إنْ ابتلي بفصاحةِ بيانٍ وبِغباءِ جنانٍ وبِمؤازرةِ إعلامِ سلطان ، وكان علمُه فوق عقلِه ، فعلمٌ بلا حكمة (عقل) هو مطيَّة صَاحبه إلى جهنم .

روى أبو داود في كتاب (الأدب) من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرو ـ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِى يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَاقِرَةِ بِلِسَانِهَا »[1].

وإنَّ كلَّ من علم بحالِ أبي لهبٍ مع رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم ومع الإسلام ، ورضي بما فعلَ ، أو لم ينكر ما فعل ، ولم يستعذ بالله تعالى من حاله وفعلِه ، ولَم يجأر إلى الله تعالى بأن يقيه حالَه وفعاله هو من أحفادِ أبي لهبٍ .

---

(١) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم : (٥٠٠٥) وسلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (٨٨٠)

وإنَّ كلَّ من صدّ عن سبيلِ اللهِ تعالى : عن الإسلامِ قُرآنا وسنة ـ بأيِّ سبيل من سُبلِ الصدِ المباشرِ الصريح أو الصدِّ غير المباشر هو من أحفادِ أبي لهبٍ وامرأتِه .

وإن كلّ مَن استحقرَ أهلَ القرآن والسّنةِ ، وتسفّه حالهم ، ونفّرَ من منهجهم وافترى عليهم ، وأشاعَ الأكاذيبِ عنهم ، وصورِهم في صورٍ تنفرُ منها النفوس ، ولا سيّما نفوس الشباب هو من أحفاد أبي لهب .

وإنّ مِن أحفادِ أبي لهبٍ الصّادين عن سبيلِ الله تعالى أولئك الذين يريدون أن تشيع الفاحشةُ فِي المجتمعِ المسلم ، والذين يريدون أن يبدّلوا كلامَ الله تعالى ، والذين يتناعقُون في وسائل الإعلامِ بوجوبِ تنقية النّصّ المقدّس : القرآن والسنّة ممّا لا يليقُ ـ في نظرهم الأحمق ـ مع مستقبلِ الأمّة . والذين يدعون كذبًا وإفكًا مبيرًا أن النّصّ المقدّس يدعو أتباعَه إلى قتل الآخرين كلُّ أولئك ، ومَن رَضِيَ بِهم ومَنْ سَكتَ عَن أفاعيلهم ، كلُّ أولئك مِن حفدة أبي لهبِ . لَهُم ما له وعليهم ما عليه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢)

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

(الصف: ٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال: ٣٦)

حريٌّ بكلّ عاقلٍ يريدُ مَنجاةَ نفسِه أن يُحسن البصرَ بما جاءت بِه سُورة المسدِ ، وأن ينظر في حالِه ، ليتقن موقعَه من موقعِ أبي لهبِ وامرأتِه .

وحرى بكلِّ مُسلمٍ يرجُو منجاةً يومَ القيامة مِن صُحبة أبي لهب وامرأتِه في نارٍ ذات لهبٍ أن يتبرّأ منهم علنًا ، وأن يجأرَ إلى الله تعالى بالدُّعاءِ عليهم ، لعلّ الله تعالى يرفَعُ عن المسلمين تسلّطهم ، ويُقيم الحقّ وأهلَهُ مقامًا حميدًا مديدا .

* * *

وإذا ما كانت سُورة « تبت يدا أبي لهب » حملت هذه الرِّسالة إلى أحفادِ أبِي لهبٍ وامرأته في صريح بيانها ومنطوق آياتها ، فإنها حملت أيضًا رسالة إلى شانئِي أبي لهب وامرأته ، وأعداء منهجهما في مفهومِ بيانِها ، لأنّهم قومٌ تفقه قلوبهم ما يحملُه مفهوم بيانِ الوحي كمثل ما تفقه قلوبهم ما يحملُه منطوقُ بيان الوحي وصريحه الذي جاءهم في سورة « النّصر »

حمل مفهوم البيان في سورة « المسد » البشرى لكلّ مسلم يحملُ هم الدّعوة إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى في قلبِه ، ويخضع حركته في هذه الحياة لخدمة هذه الدعوة .

حملت البشرى بأنّ كلّ من يتصدّى لسعيك هذا إنّما مصيره هو مصير إمامِه أبي لهبٍ وامرأته ، وأنَّ مصيرك أنت هو ما جاء مصرحًا بِه في سورة النّصر والفتح .

فعلَى كلّ من جاءته البُشرى تلويحًا في بيانِ سورةِ « المسد » وتصريحا في سُورة « النّصرِ » أن يستحضرَ دائمًا ما ختمت بِه سُورة (النحل) التي ترسُم لنا منهاج الدَّعوة إلى الله تعالى :

﴿ **ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦**

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾

(النحل:١٢٥-١٢٨)

وفي قوله تعالى جدُّه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨) ما يملأ قلبَ كلّ داعٍ إلى الهدَى باليقين بِعقبَى النصر والفتح ، وهذا ما يثور عزيمة كلّ داعٍ إلى الهدى بصفاءِ قصد ، وطهارة قلبٍ ، والتزام بما شرعَ الله جلّ جلالُه في كتابِه وسنة رسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم وإتقان عملٍ وصبرٍ عليْه . فتلك عواملُ النّجاحِ والفلاح في كلِّ عملٍ صَالحٍ مصلحٍ .

* * *

هذا بيان للناس
الرِّضا بالمنكر وصورِه

مِـن سُـنةِ الله تعـالى في خلقِـه أن جعلـهم مهيّـئين لسـلوك طريـقِ الحـق والمعروفِ والخير ، ولسلوك طريق الباطلِ والمنكرِ والشَّرِّ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد:٨-١٠)

وأوجب على من هداه الله تعالى هداية إبانة وإعانة وتوفيـقٍ إلى الخـيرِ أن يقوم بالوفاء بحقٍّ عليْه لمنْ سلك سبيل الباطلِ والمنكر والشر ، فيأخذ بيـده بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن جادلَ جادله بالتي هي أحسـن ، فـإن كـان من أحفادِ أبي لهبٍ فأعرَض واعترضَ وصدَّ الحق عن أن يُبلَّغَ للنـاس كيمـا يتخذوا بأنفسِهم لأنفسِهم قرارًا بالقبول أو الرفض ـ أن يأخذوا على يديه : أنْ يقاتل حتى يكفّ عن الصَّدِّ والمعاداة ، فإن لم يكفّ قُتلَ حمايةً للنَّـاس مـن شرّه المستطير . أَحسِنْ إليْه في قتله قَالَ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَـبَ الإِحْسَـانَ عَلَـى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَـدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ». (مسلم : الصيد والذبائح)

ذلك فرضٌ لابدّ من القيـامِ بحقّـه ، أمَّـا أن يَـتركَ أهـلُ المعـروف صُناعَ المُنكر ومروجيه يفعلون ما شاءوا ففي ذلـك تعـريضٌ للأمـة للهلكـة وكـان الناس جميعًا سواء في صِناعةِ المنكر وترويجه ..

روى أبو داود في «الملاحـم» مـن سُننه بسـنده عَـنِ الْعُـرْسِ بْـنِ عَمِـيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلَّم ـ قَالَ :

« إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَـانَ مَـنْ شَـهِدَهَا فَكَرِهَهَـا ـ وَقَـالَ مَـرَّةً: «أَنْكَرَهَا» كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَـابَ عَنْهَـا فَرَضِـيَهَا كَـانَ كَمَـنْ شَـهِدَهَا». حسَّنه الألبانيّ في صحيح وضعيف سنن أبي داود .

* * *

أصناف الناس إزاء الخطايا :

الناسُ إزاء الخطايا والآثام حين تقع أربعٌ :

الثلةُ الأولى : تشهدُها لأنَّها فعلت بيْن عينيْهِا طوعًا أو كرهًا ، ولكنَّهـا تتَّخذ موقفًا كريمًـا : تُنكـرُ وتعـترضُ وتُـبِينُ عـن خطـر ذلـك وتسـعَى إلى تغييرها بما شرع لها ، وبما اقتدرتْ عليْه ، فتلك هِي النّاجيةُ .

والثلّـةُ الثانيـة : تشـهدُها ، ولا تتخـذُ موقفًـا كريمًـا منهـا ، بـل ترضَـى ويعجبها ذلك ، بل ربّما تمنت أن تفعلها ، فتلك هي الخاسِرة خُسرانًا مبينا .

والثلةُ الثالثة : لم تشهدها وعلمت بهـا علـم يقـين ، فغضـبت لله تعـالى ، أنكرت بما وسعها ، وسعت إلى تغييرهـا بمـا شـرع لهـا ، واقتـدرتْ عليْـه ، فتلك هي النّاجية .

والثلّةُ الرابعة : لم تشهدها أيضًا وعلمت بِها ، وما حركت ساكنا بـدعَوى دع الخلـقَ للخـالقِ ، وبـدعوى «عَلَـيْكُمْ أنفُسَـكم» وبـدعوى الحريـةُ الشّخصية»... إلخ

فتلك كالثانية هي الخاسِرة[1].

والثُّلة الثّانية والرَّابعة الهالكتان يتكاثرُ أهلُهما تكاثرَ الجرادِ في زمانِنا هذا.

وفي هذا النّبأ الكريم من رسولِ الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم بَعثٌ لكلّ مسلم إلى أن لا يكتفِي بترك فعلِ المنكراتِ ، بل عليْه فرضَ عين أن يتجاوزَ ذلِك التركِ لفعلِ المنكرِ إلى أَن يُنكرَ على من فعلَ المنكراتِ ما استطاعَ ، وبكلِّ سبيلٍ من سُبلِ الإنكارِ والتغيير ، وأدناها كُلفة بغضُ القلبِ صِدقًا هذا المنكرَ وبغضُ أهلِه حتّى يتركوه إيمانًا واحتسابًا والتزامًا ، لا عجزًا . فمن لم يفعلْ ولم يقمْ في هذه المنزلة فقد خرج من الإيمان ، لا الإسلام ؛ لأنَّ عدم الإنكارِ بالقلبِ وما يلزمُه لا يعجز عنه أحد قط ، فترك الإنكار بالقلب آيةٌ بينة بالرّضا بالمنكر ، وبأهلِه ، وهذا من بابِ محاربة اللهِ تعالى . والله عزّ وعلا يقُول :

---

(١) قوله تعالى ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (المائدة:١٠٥) معناه الزموا صلاح أنفسكم ومراقبتها ، لا يضركم ضلالُ الكافرين إذا أسلمتم أمركم لربكم وقمتم إيمانًا واحتسابًا بحق هذا الإسلام من أمرٍ بمعروفٍ ونهي عن المنكر بما شرعه الله تعالى لكم ، فإليه ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وحده مرجعكم فيخبركم ما كنتم تعملون سرًّا وجهرًا قولاً وفعلا .

فليس في الآية البتة دعوة صَريحة أو غير صَريحة إلى أن يدع المسلمُ النَّاسَ يفعلون ما يَحلُوا لهم من المنكرات ما دامت هذه المنكرات لا تمسّه بسوء مباشر . وجهلوا ، فضلوا وأضلوا ، لأنَّ كلّ منكر يقترفُ أحد من قومك ثم لا تنكره عليه هو لا بدّ أن يعودَ سوء أثره عليك وعلى سائر قومك . وقول العامّة : أنت حرّ ما لم تضر « كلمة تفهم فهمًا جدًّ خاطئ . لن تقف البتة آثار المنكر على من اقترفه ولو في قعرِ جبل في ظلمة الليل ، إنّها لا محالة سيُصيبُ أثرها البلاد والعباد بطريقٍ مباشر أو غير مباشر ، عاجلا وآجلا . فليس هنالك قطٌّ في الإسلام الذي جاء به القرآن والسنة حرية شخصية في ارتكاب المنكرات .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (المجادلة: ٢٠-٢٢) .

* * *

من صُور الرِّضَا بالمنكر:

للرِّضَا بالمنكر وأهلِه صُورٌ كثيرةٌ يغفُلُ الناسُ عنها ، ويحسبون جهالة أنّها ليست من تأييد المنكر وأهلِه .

● من الرِّضا بالمنكر وبأهلِه أنْ تعينهم ولو بكلمةٍ ، بل ولو بالصّمتِ وهذا ممّا يقع فيه كثيرٌ من العامة . وأنْ تشهد مشاهدهم ، ومجالستُهم ، وتكثيرُ سوادهم . وأن تستمع إلى برامجهم ، وأنْ تتصلَ بقنواتهم ، وأنْ تشارك في شأنٍ من شؤونهم .... إلخ ، وأنْ تقرأ أخبارهم ومقالاتهم إلا إذا كنت من أهل الإنكارِ باللسانِ ، بأن تكون من أهل العلم أو من طلبته المتقدمين فِيه المالكين لحُسنِ الفهمِ وحسنِ البيان لتنقضَ ذلك وتحذر منه وتُبين عمَّا فيه من المُنكر بالحُجَّة والبُرهانِ الصَّحيح الصريح .

* * *

● ومن الرِّضا بالمنكر وبأهلِه ألا تستعيذ بالله تعالى جهاراً من منكراتِه ، وأن لا تعلن براءتك من أفعالِهم ..وأن لا تدعو الله تعالى أن يأخذَ بهم إلى الحق أوْ أن يُطهرَ الأرض من رجسهم ، ورجسِ من يُعينهم ومن يرضَى بهم .

* * *

● ومن الرّضا بالمنكر أن لا تُطالب ولاة الأمر بالأخذِ على أيديهم ومنعِهم من منكرهم بكلِّ سبيلٍ شرعه الله تعالى لوليّ الأمر في هذا ، فإن لم يفعل وليُّ الأمر ذلك ، فقد أسقط حقه في طاعته ، وبقي لأهل المعروف : العلماء والحكماء . ليس العامة أن يتولوا ذلك بأنفسِهم إلا إذا ترتب على ذلك منكر أكبر ، ولا سيّما منكر تمزيق وحدة المسلمين ، ومنكر إراقة دم بغير حق مشروع فحينئذ يدرءُ منكرٌ أعلى وأشنع بمنكرٍ أدنى ضُرًّا ونكالا . وأهل العلم بكتابِ الله تعالى الذين امتزجت الحكمة بعلمهم هم أولى الناس بتقدير ذلك ، وليس كل ذي علم بحكيم ، فكم من عالمٍ حامل لمقالات أهل العلم هو الخلاء من العقل (الحكمة) وقليلٌ من العلم المحقق مع كثيرٍ من الحكمة هو النافع والناجع ، وكثيرٍ من دقائق العلم ولطائفه وطرائفه مع خلاءٍ من الحكمة هو الهلاك والبوار ، والجهلُ خيرٌ منه عاجلاً وآجلاً .

وقد كثرت هذه الثلة التي كان علمها فوق عقلها في زماننا هذا كثرة تنخلع لها القلوب هلعًا وفرقًا مما سيحل بالبلاد والعباد من الوبالِ بهم . فمثلُ أولئك فريضة على ولي الأمر رأس الدولة أن يحجر عليهم حجر السفيه . .

كلُّ ذلك وكثيرٌ غيرُه من صُور الرّضَا بفعلِ المنكر لا يتسع المقام لبسط القولِ فيه .

ومنْ فعلَ صُورةً من هذه الصورِ كان حينئذٍ كمثلِهم ، يُعاقبُ بعقُوبتهم .

هم فعلوا المنكر وهو لم يَغضب لله تعالى .

همْ فعلوا المنكر وهو لم يُتاركهم ، ولَم يُفاصلهم ولَم يُتحاجزْهم ، بل بقي متعلقًا بِهم وبأخبارِهم وبأحوالِهم ....

هم فعلوا المنكر وهو لم يُحفزْ من يملك منعهم ويحثّهم بما شرع الله تعالى حثّ ولي الأمر بِه . وكلُّ هذا آيةٌ بيّنة على أنّ مَن لم يتصدّ للمنكرِ وصنَّاعِه ومروِّجيه ما تزالُ في قلبهِ أثارة وبقية من محبّة فعلِه المنكر .

إنَّ من هدى النبيّ صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في اتخاذِ موقف من المنكر وأهلِه مقاطعتَهم مقاطعةً تامَّةً .

ألا ترى كيف فعل صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم مع الثلاثة الذين تخلفُوا عن غزوة « تبوك » ؟

عزل المجتمع المسلم عنهم ، أقام بينهم وبين سائرِ المسلمين حجازًا منيعًا . فحلَّ بهم من الهمِّ والغمِّ والكمدِ ما حلَّ ، وأنت تقرأ بيان القرآن الكريم ذلك في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:١١٨) [١]

إنك إن أحسنت التلقّي لما أنبأ به الله تعالى في كتابِه الكريم وأخبرَ به رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم في بيانِه الشريف عن حال فعل المنكر وأهلِه ، وأثر ذلك في الأمةِ حملت فيضًا عظيمًا من معانِي

---

(١) أحيلك على ما رواه الشيخان : البُخاريّ في كتاب « المغازي » من صحيحه ومسلمٌ في كتاب « التوبة » من صحيحه من حدِيثِ كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن الغزوة دون عذر شرعي . ولولا طول الحديث لنقلته لك ، فتشرَّفْ أنت بقراءته في صحيح البخاري ، وصحيحِ مُسلِمٍ ، ثُمَّ في شرح ابن حجر له في فتح الباري (١١٦/٨ وما بعدها . حديث رقم : ٤٤١٩)) وكتاب شيخنا « شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول . ط٢ ١٤٣١هـ ص ٦٠٥ - ٦٨٧

الهدى التي تبصر بها طريقك إزاء أهل المنكراتِ ممّن يُحيطون بك حيثُ حللت في هذا العصرِ الذي تكاثر فيه الفجرة .

إنَّ على ولي الأمر العام المسلم قلبًا وقالبًا وظاهرًا وباطنًا أن يأخذ على أيدي هذه الطائفة من المجاهرين باقترافِ السيئات والتفاخرِ بِها ، ودعوةِ الناس إليها ؛ لأنّهم خطر على الأمن القومي كما يقول السّاسة ، وهم أشدُّ خطرًا على الأمُّة ممن يقترف جرِيرَةَ «التجسس» و«التّخابر مع دولة أجنبية» التي عقوبتها في القانون الوضعي الإعدام ، ذلك أنّ الّذين يجاهرون بالمعاصي ويتفاخرون بها ويُغرُون الناسِ بها إنّما يستوجبون عليهم وعلى الأمة محاربةَ الله تعالَى لَهم ، وإذا كان الذي لا يدع الرّبا قد هدِّد في كتابِ الله تعالى بالحرب :

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ** ﴾ (البقرة:٢٧٨،٢٧٩)

فكيف بالذي يحاد الله تعالى ورسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم ويجاهر بالفسُوق ويفاخر بالفجور ؟

إنّ علينا أمرين:

الأولُ : ألا نعين الشيطانَ على أخينا الذي لم يتخذ الفجور صناعةً ورسالةَ حياة .

والآخرُ : أن نكون لكلِّ أخٍ لنا فِي الله تعالى وفي إقامة شرعِ الله تعالى في الأرضِ إيمانا واحتسابا عونًا له على الشيطان ؛ لنكسرَ شوكته ، وشوكة جندِهِ ، وشوكةَ عبدتِه الذينَ يجاهرون بالخطايا ويتفاخرون بها ، ويتصايحون في

الناسِ بتسفيه أهل العلم ، حملة كتابِ الله تعالى وجند سُنة رسُولِه صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم .

فحقٌ على كلّ مسلمٍ أن يجاهدهم بما ملك وبما يقتدرُ على الجهادِ بِه . فإن جهادهم بما يقتدرُ عليْه كلُّ مسلم فرضُ عينٍ عليه .

وأيسر ما نجاهدهم به التمسُّك بكتابِ اللهِ تعالى وسنة رسُوله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم حتى يشيع ذلك في الأمة .

ولا يمرضُ قلوب أحفادِ أبي لهبٍ ولا يُنهكها ويُدميها كمثل ما يرونه من تزايد أهل الطَّاعة وإصرارهم عليها إيمانًا واحتسابًا ، وانتشار التمسك بسنن رسُول الله صَلّى اللهُ عليْهِ وَعلَى آلِهِ وصَحبِه وسلّم السلوكية ولاسيما بيْن الشباب رجالا ونساءً ، فمثل ذلك يملأ قلوب أولئك غمًّا وكمدًا متكاثرًا .

وهذا سلاحٌ نافذٌ فاتك يمكن كلّ مسلمٍ أن يجاهدَ بِه ، فشيوعُ الطَّاعة لله رب العالمين من أكثر الأسلحة الفاتكة بأحفادِ أبي لهبٍ .

إنَّ هذا السِّلاح ليملأُ قلوبَهم مرضًا ، فلا يهنأ أحدٌ منهم بما باعَ بِه آخرته من عرضِ الدنيا . فلا تلقِ سلاحك ، فإن من وراءك أحزابًا للشيطان تتربَّص بك ، وتنتهز فرصة من الغفلة أوالوهن تأخذ بك لينقضُوا عليك . فاحذر

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢)

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه: ١٣٥).

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦)

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٥)

سُبْحَانَك اللهمَّ وَبِحَمْدِك أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ أَنتَ أَسْتغفِرُكَ وأتوبُ إليك ، فاغفِرْ لِي فَإنّه لا يَغفرُ الذُنوبَ إلا أنـتَ ، وصَـلِّ وسـلّم وبـارِك علـى عبـدِك ونَبيّك سَيّدنَا مُحمّدٍ وعلَى آلِه وأزواجِه وذريتِـه وأصـحابه وورثَتِـه مِـن أهـلِ العلم وأمّتِه أجمعين عددَ خلقِك ورِضاءَ نفسِك وزِنةَ عرشِك ومِدادَ كلماتِـك كَما تُحبُّ وترضَى إنّك حَميدٌ مَجيدٌ .

والحَمدُ للهِ ربِّ العالمين»

وكتبه

محمود توفيق مُحمّد سعد

almasry411@gmail.com

ثبت أهم المصادرِ والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، لشهاب الدين الدمياطيّ (ت:١١١٧هـ). تحقيق : أنس مهرة . ط . ٣ ، ٢٠٠٦هـ . دار الكتب العلمية ـ لبنان
- أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، (ت : ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، ط . مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة
- البرهان فى تناسب سور القرآن ، لأبي جعفر ابن الزبير (ت : ٧٠٨هـ) تحقيق : محمد شعباني ، ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب ، ١٤١٠ هـ
- التحرير والتنويرللطاهر بن عاشور (ت : ١٣٩٣هـ) ط . ، ١٩٨٤ هـ ، الدار التونسية للنشر ـ تونس .
- تراثُ أبي الحسن الحراليّ في التفسير : تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي في التفسير (ت:٦٣٨هـ) تحقيق : محمادي الخياطي ، نشر منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ط . ١ ، ١٤١٨ هـ .
- التَّفْسِيرُ البَسِيْط لأبي الحَسَنِ الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) تحقيق : محمَّد بن صالح بن عبد الله الفوزان ، ط . ١ ، ١٤٣٠هـ : عمادة البحث العلمي ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض
- تبصيرُ الرحمن وتيسير المنان ما يُشير إلى إعجاز القُرآن لعلي المهايمي . ط . بولاق . مصر
- جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط . مؤسسة الرسالة ، ط . ١، ١٤٢٠ هـ

- حاشِية القونوي ، وابن التمجيــد على تفسير البيضاوي ، تحقيق عبد الله محمـود عمـر ، ط .١، دار الكتب العلمية . بيروت ، ١٤٢٢هـ

- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، ط . ٣ ، ١٤١٣هـ ، مطبعة المدني بِجدة مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجدة .

- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشـام ـ للسـهيليّ (ت : ٥٨١هــ) تحقيـق . عمر السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ .

- فتوح الغيب في الكشفِ عن قِناعِ الرّيبِ : حاشِيةٌ على كشّافِ الزمخشريّ ، لشرفِ الدين الحسين بن عبد الله الطيبيّ (ت : ٧٤٣هـ) طبع بإشراف : الدكتور محمد عبـد الـرحيم سلطان العلماء ـ جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، ١٤٣٤هـ .

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ط . ٣ ، ١٤٠٧هـ ، نشـر : دار الكتـاب العربـي ، بيروت .

- المحـــرر الوجــيز لابن عطية (ت : ٥٤٢هـ) تحقيـق : عبد السلام عبد الشافي محمـد ، ط .١ ، ١٤٢٢هـ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت

- مفاتيح الغيب للفخر الرازيّ ، ط . ٣، ١٤٢٠هـ ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

- نظــم الدرر في تناسب الآيات والســور ، برهــان الدين البقاعي (ت:٨٨٥هـ) تحقيـق : عبد الرزاق غالب المهدي ـ ط . ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

* * *

بيان المحتويات

الموضــــوع **الصفحة**

الفرقُ بين موضوعاتِ السّورةِ ومقصُودها الأعظم ، عِنايةُ العُلماء بذلك.

مقصُود سُورة «المسد»

معاني الهدى في تلاحظ المعاني وتناصرها في سورةِ «المسد» ، وفي سور أُخر : سورة النصر ، والكافرون ، والكوثر والماعون.

معاني الهدى في علاقة سورة «المسد» بسورة «الهمزة» علاقتها بسُورة «النساء»

موقعُ سورةِ «المسد» على لاحب السياقِ الكلي الممتد للمعنى القُرآني.

معاني الهدى في النظم التركيبيّ لسورة «المسد»

بناء سُورة «المسد» من معقدين.

موقع المعقد الثاني من المعقد الأول.

معاني الهدى في مستويات تجلّي الجلال والجمال في معانِي سورةِ «المسد» :

خصائص المعنى القرآني التي يفارقُ بها كل معنى .

رأسُ الخصائص جلالُ الألوهية وجمالُ الربوبية.

أثر استحضارِ جلالِ الألوهية في الاستماع والتدبر.

أثر استحضار جمال الربوبية في الاستماعِ والتدبر.

معاني الهدى في تقديمِ الجلالِ على الجمالِ في المسير

وجه ظهور جلالِ الألوهية في سُورة «المسد» وخفاء جمال الربوبية.

في سورةِ «المسد» تأكيد منطوق سُورةِ النصر ولمفهومها.

الفصل الثاني

(٣٩-١٢٧)

القول بأن قوله تعالى ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ دعاءٌ عليه مناقشة هذا المذهب. استعلاءُ أنه خبرٌ لا دعاء . وجه الاستعلاء.

معاني الهدى في دلاله هذا الخبرعلى إعجاز القرآن.

معاني الهدى في ما يحمله قوله ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ من البشرى لأهل الحق في كل عصر.

معاني الهدى في دلالة ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ ووجه تقديمها على (تب)

معاني الهدى في الإعلان عنه بكنيته لا باسمه العلم.

معاني الهدى في تجريد هذه الجملة من التوكيد

معاني الهدى في عطف قوله ﴿ تَبَّ ﴾ على ما قبلَه.

معاني الهدى في دلالة العطف بالواو ، وأثر ذلك في التثقيف النفسيّ للسّامع.

الآية الأولى من السورةِ هي أصل المعنى . وما بعدها تفصيلٌ له

معاني الهدى في علاقة قوله تعالى ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ بقوله تعالى ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾

معاني الهدى في علاقةُ قوله تعالى : ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ بقولِه تعالَى ﴿ وَتَبَّ ﴾

معاني الهدى في دلالات التركيب وخصائصه في ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ المعاني التثقيفية المستمدة منها

معاني الهدى في دلالات التركيبِ وخصائصه في ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ المعاني التثقيفية المستمدة منها علاقتها بما قبلها.

كتب للمؤلف

- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ـ دراسة منهجية تحليلية (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- سبل استنباط المعاني من الكتاب والسنة ـ دراسة منهجية تأويلية ناقدة (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- صورة الأمر والنهي في القرآن الكريم (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- فقه تغيير المنكر ـ سلسلة كتاب الأمة ـ قطر (نفد)
- الإمام البقاعي ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- فقه بيان النبوة ـ منهجا وحركة ـ دراسة في البلاغة النبوية (نشر مكتبة وهبة بشارع . القاهرة)
- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني . (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر في الذكر الحكيم . (نشر مكتبة وهبة. القاهرة)
- نسق بناء القصيدة في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا ـ دراسة نقدية (نفد)
- تغييب الإسلام الحق : نقض افتراءات العلمانيين على القرآن الكريم ـ نشر مكتبة وهبة ـ القاهرة
- قضايا نقدية في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحيّ (نفد)
- الإغريضِ في الفرق بين الكناية والتعريض للتقي السبكي ، تحقيق ودراسة (نفد)

بحوث محكمة نشرت في حوليات علمية

- فقه التعبير القرآني في ضوء مقامات القرب . (بحث محكم نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ـ فرع المنوفية)
- الاستفهام القرآني دقائق علمية ورقائق إيمانية (بحث محكم نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ـ فرع المنوفية)
- التفكير البلاغي في بيان الوحي (بحث محكم نشر في بحوث المؤتمر العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة)
- مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغيّ. (بحث محكم نشر في مجلة جذور المحكمة الصادرة من نادي جدة الأدبي بجدة)
- نقد مذهب التقي السبكي في منع دلالة التقديم على الحصر (بحث محكم نشر في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض)
- أصول البحث في بلاغة التناسب القرآني (بحث نشر في كتاب مؤتمر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عن الدراسات البلاغية القرآنية عام (٢٠١٦م)
- نقد العقل البلاغي . (بحث مقدم لمؤتمر العقل وعلوم العربية ـ جامعة الأزهر ـ شبين الكوم عام ٢٠١٧م) نشر في كتاب المؤتمر ج١ .
- مراجعات ناقدة في أسلوب الفصل والوصل (بحث منشور في مجلة «جذور» حولية النادي الأدبي الثقافي بجدة
- نظرية النظم الجرجانية وقراءة الشعر (بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ـ شبين الكوم)

* * *